النقد الجمالي في الأدب العربي
بين
ابن طباطبا وقدامة وابن رشيق
عرض ودراسة

إعداد

د . حبيب بن معلا اللويحق المطيري
الأستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد
كلية اللغة العربية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض – المملكة العربية السعودية

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أما بعد..

فمـــع طوفـــان المصطلحات النقدية الحديثة ، ومع ظهور تيارات نقدية تدرس فلســـفة النص وتضرب الذكر صفحاً عن جمالياته أحببت أن أقدم هذه القراءة لثلاثة من أعلام تراثنا النقدي في ثلاثة كتب من أشهر كتب النقد في تراثنا ؛ وهم :

١ – ابن طباطبا [١] المتوفى سنة ٣٢٢ هـــ .

في كتابه الشهير : عيار الشعر

٢ – قدامة بن جعفر [٢] المتوفى سنة ٣٣٧ هـــ .

في كتابه : نقد الشعر

٣ – ابن رشيق القيرواني [٣] المتوفى سنة ٤٦٣ هـــ .

في كتابه : العمدة

١– قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ، أبو الفرج ، كان نصرانيا فأسلم ، وبرع في العربية وآدابها ، كان أحد البلغاء الفصحاء المناطقة .

انظر : السابق ٦ / ٣١

انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ١٧ / ١٤٤ ، دار الفكر طـــ٣ ١٤٠٣هـــ

و : خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار الرسالة ٦ / ١٩٨

٢– قدامـــة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي ، أبو الفرج ، كان نصرانيا فأسلم ، وبرع في العربية وآدابها ، كان أحد البلغاء الفصحاء المناطقة . انظر : السابق ٦ / ٣١

٣– الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي بالولاء ، كان أبوه مملوكاً روميا من مماليك الأزد كان شاعراً أديباً نحوياً لغوياً حاذقاً عروضياً ، كثير التأليف ، حسن العبارة . انظر : ياقوت ، معجم الأدباء ٨ / ١١٠ .

أولاً : ابن طباطبا

آثرت أن يكون الحديث بداية عن ابن طباطبا وكتابه الشهير " عيار الشعر " ؛ نظراً لأنه متقدم عن صاحبيه له حق الأولية ، وميزة التقدم .

وقد كان بطبيعته الشعرية ، ولروحه الذواقة أثر كبير في أن يخرج كتابه بهذه الصورة المفعمة بالنظرات النقدية رغم انفراده في هذا الميدان .

ونستطيع أن نلمس هذه القضية من خلال نظرة في بداية كتابه .

حيث افتتحه بتعريف مائز للشعر فهو يرى أن الشعر " كلام منظوم بان عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق " [1]

وهو هنا يضع عماد الشعر النظم والتركيب الذي إن أخل به مجّه الذوق ورده، ونراه هنا في هذه النقطة وما بعدها يشير إشارة لطيفة إلى الذوق الذي ينبغي أن يراعى في الحكم على النصوص الفنية .

فهو يقول بعدها : " فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه " [2]

ثم يواصل طريقه في كتابه ذاكراً أدوات الشعر التي يجب على الشاعر إعدادها قبل مرامه وتكلف نظمه .

ويذكر منها : التوسع في علم اللغة ، والبراعة في فهم الإعراب ، والرواية لفنون الآداب والمعرفة بأيام العرب ، والوقوف على مذاهب العرب في الشعر ، وهو يعني بهذه الأداة ما أسماه الشعراء والنقاد : عمود الشعر .

وهو يذكر من هذه الأدوات أنواعاً وألواناً يظهر منها فهمه الدقيق لما يحتاجه الشاعر من جهة المعنى ومن جهة اللفظ .

١- عيار الشعر ص ٥ .

٢- السابق ص ٦ .

فمما يتعلق باللفظ يذكر اللطف والخلابة والعذوبة ، وحلاوة المقاطع ، وحسن المبادي ، والجزالة .

ومما يتعلق بالمعنى يذكر الجزالة ، وبهاء الصور ، ويذم المعاني المستردة .

ونـــراه في هذا الموضع ينتبه إلى أهمية مشاكلة الألفاظ للمعاني ، وملاءمتها في أحسن ثوب وأبهى صورة .

وهـــو بهـــذه الســـابقة التي تحمد له ، أحد أصحاب الرأي الأمثل قبل ظهور نظرية النظم ، وهو وجوب الاهتمام بالألفاظ والمعاني .

ثـــم يضـــع جمـــاع تلك الأدوات : " وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي تتميز به الأضـــداد ، ولـــزوم العـــدل ، وإيـــثار الحســـن ، واجتـــناب القبيح ، ووضع الأشياء مواضعهـــا " [1]

وبهـــذه الـــنظرة النقدية المفعمة يختم حديثه عن أدوات الشعر منبهاً على أهم القضايا النقدية في هذا الباب .

ومـــن القضـــايا النقدية المهمة في كتابه ، حديثه عن بناء القصيدة [2] وهو يعنـــي بـــه أموراً عدة لعل من أهمها – وإن لم يظهر هنا بوضوح – ما سمي بعد بالوحدة العضوية . ومنها ملاءمة الكلمات والقوافي للمعاني المتعلقة بها .

فهـــو يرى أن يتمخض الشاعر عن الأفكار والمعاني ثم يلبسها أثواب اللفظ الرائقة الموافقة . ثم وضعها مع القوافي المطابقة .

فـــإن رأى فـــيما بعد قافية تناسب غير ما هي فيه أبدلها ما يناسبها مما كان المعنى مختاراً لها .

وهو يشبه الشاعر بالنسّاج الحاذق والنقاش الرقيق الذي يحسن تقاسيم نقشه .

وفي معرض حديثه عن هذه النقطة يورد رأياً قوياً سبق به وهو أن الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي

---

[1]– السابق ص٧ .

٢ –السابق ص ٧ .

الفصيح لم يخلط به الحضري المولد .

وكذلك إذا سهل ألفاظه لا يخلط بها الوحشي النافر . بل يقف على مراتب القول وفنونه[1]

والحق أني تعجبت من دقة هذا الرأي رغم تقدم صاحبه .

وفي هذا كله يضرب على وتيرة واحدة يلح فيها على الملاءمة والمشاكلة والموافقة

ثم يتحدث بشيء من الإيماء عن أخطر قضية تكلم عنها في كتابه على الإطلاق وهي ما سمي بعد الوحدة العضوية .

فهو يرى أن الشاعر عليه أن يتبع " ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم وتصرفهم فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى ، ومن الشكوى إلى الاستماحة ، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافي والنوق ... بألطف وأحسن حكاية بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله بل يكون متصلا به وممتزجا معه "[2]

فهو يعد من محاسن الشعر هذه الوحدة غير عابئ بما يتردد في عصره من أن تعلق بيت بغيره يعد عيباً ويسمونه التضمين .

فهو بهذا سابق لهم متنبهاً في دقة " إلى ما ردده – ولا يزال يردده النقاد في عصرنا من فكرة الوحدة العضوية في القصيدة بحيث تصبح عملاً محكماً إحكاماً .. " [3]

١- السابق ص ٨ .

٢- السابق ص ٩ ..

٣- شوقي ضيف - البلاغة تطور وتاريخ صـ ١٢٧ .

ولكن بعض النقاد يرى أن العرب لم يكونوا يدركون هذه الوحدة تماماً ، ولم تتضح صورتها النقدية تماماً عند ابن طباطبا ، بدليل أنه يرى تفسيراً لكلامه أنها حسن التخلص والخروج من معنى إلى معنى . [١]

ولعل ابن طباطبا – إن لم يصل إلى هذا الفهم – أن يكون قد حقق تقدماً نقدياً في إلحاحه على هذه القضية التي كانت مستغربة في زمنه .

ومن نظراته النقدية في كتابه ، حديثه عن تفاضل الأشعار [٢] فهو يرى تفاضلها كما يتفاضل الناس منبها على أهمية الذوق في هذه القضية .

وتحت نظرية تفاضل الأشعار يتحدث عن قضية نقدية ساطعة وهي اللفظ والمعنى [٣] ويقسم الأشعار إلى أقسام عدة منها ما

كان أنيق اللفظ ، حكيم المعنى ، جيداً جزلاً ، ومنها أشعار مموّهة مزخرفة ، إذا حصّلت وانتقدت كانت بهرجاً تزعزها الرياح ، ويسرع إليها البلى .

وهو يخرج من هذا إلى أن للمعاني ألفاظاً تشاكلها ؛ تحسن فيها وتقبح في غيرها .

وحديثه هنا مقتضب رغم أنه يضع أسساً للحديث حول هذه القضية .

وفي مقارنة لطيفة في ثنايا حديثه عن تفاضل الأشعار بين شعر المولّدين وأشعار الجاهلين فهو يرى أن السابقين قد سبقوا إلى كل قول بديع ومعنى لطيف . وأن الجاهلين بنوا شعرهم على المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحاً وهجاءً .... أما الشعراء الآتون بعد ، فإنما يثابون على غرائب ونوادر ما يأتون .

ثم ينبه على قضية مهمة ، وهي أن أشعار المحدثين متكلفة غير صادرة عن طبع صحيح .

والمحدثين والحال هذه ألا يظهروا شعرهم إلا بعد الثقة من جودته وسلامته من العيوب .

١- محمد غنيمي هلال – النقد الأدبي الحديث صـ ٢١١ .

٢- عيار الشعر ص ١٠ .

٣ – السابق ص ١١ .

وكلامه هذا يشبه إلى حد كبير ما وصل إليه النقاد فيما بعد حول هذه المسألة ، من أهمية الإتيان بجديد دون التكلف وركوب الشطط .

وفي ثنايا كلامه نراه يتحدث عن قضية في غاية الأهمية ، وهي قض السرقات الشعرية فينصح الشاعر " ألا يغير على معاني الشعراء فيودعها شعر ويخرجها في أوزان مخالفة لأوزان الأشعار التي يتناول منها ما يتناول " [1]

وهو بهذه القضية النقدية وغيرها يكون قد تناول أمهات القضايا النقدية في عصره ، وقد وضع في كلامه هذا الأساس لهذا المعنى ، ونهى عن الإغارة الشعر ، بل يجب على الشاعر أن يديم النظر في شعر المتقدمين والمتأخرين يهذب طبعه ، ويسلم قياد قوله ، ثم يقول ما شاء ، دون أن يتعرض لشعر فيقول معناه كما هو .

وهذه قضية أخرى وهي أهمية الاطلاع الأدبي للشاعر فلا تكتفي الفد والموهبة الأصيلة ، بل لابد لها من مرونة ودربة وتهذيب عن طريق مط الآداب .

وفي موضع آخر نراه يتحدث عن عيار الشعر [2] وهو يقصد به مقي الشعر الذي يعرف به سقيمه من صحيحه .

وهو عنده (الذوق) ، صحيح أنه لم يصرح بهذا اللفظ ولكنه جعل العما الفهم الثاقب الذي يرى الشعر مما قبله منه فهو واف

وما مجّه فهو ناقص وهو ذاته الذوق .

ويعلل لهذا بحجة عقلية رائعة يجمع من خلالها بين الرأيين في مقياس نقد الأدب : الذوق والقواعد ، فهو يجعل الذوق مقياساً ولكن !! أي ذوق ؟؟ إنه الذوق المصقول المعتاد على سماع حسن الشعر وجيده .

١- عيار الشعر ص ١٤ .

٢- عيار الشعر ص ١٩ .

وهـذه الحجة العقلية تتمثل في أن الحواس تألف للسليم في كل شيء " فالعين تألف المرأى الحسن ، وتقذى بالمرأى القبيح الكريه ، والأنف يقبل المشم الطيب ، ويـتأذى بالمنتن القبيح ... والفهم يأنس من الكلام بالعدل الصواب الحق ، والجائز المعـروف المـألوف ، ويتشوف إليه ، ويتجلى له ، ويستوحش من الكلام الجائر الخطأ الباطل ، والمحال المجهول المنكر وينفر منه ويصدأ له " (١)

ثـم يتحدث بعد هذا عن بعض ما يتوجب أن يكون عليه الشعر، وعن صفاته التـي يكون بسببها مقبولاً حسن الوقوع في النفس ، فيضع الأساس لهذا كله الاعتدال يقول " وعلة كل حسن مقبول الاعتدال ، كما أن علة كل قبيح منفي الاضطراب " (٢)

وهـذه قـاعدة عامة يقصد بها الاعتدال في كل أمر يتعلق بالألفاظ ، وقوتها وجزالـتها ، وسلاسـتها ، وعذوبتها وجرسها ، وقوة تأليفها . وفي كل أمر يتعلق كذلـك بالمعانـي وعمقها ، وسلامتها ، وصحتها ، ودقة تصويرها ، وصوابها ، وملاءمتها لأحوال متلقيها .

وفي كل أمر يتعلق بالأسلوب والتركيب من تلاؤمه وصحة نسجه ، وقوة تأليفه.

ومـن ثم يلحّ على أن للشعر الموزون إيقاع يطرب الفهم لصوابه . وأنه إذا اجـتمع اعتدال الوزن مع صواب المعنى ، مع حسن الألفاظ كان الكلام بالغاً غاية حسنى في الإفادة والإمتاع .

وفـي كلامه هذا ميل واضح إلى أهمية الاعتناء بالألفاظ والمعاني والجرس الموسيقي المستخدم لأداء الشعر والنص الأدبي المتميز .

وعلى هذا يتضح اتجاهه ورأيه في إنه لا ميزة للفظ وحده ، ولا للمعنى وحده ، بل يبلغ الغاية من يجمع بينهما .

وثمـت علـة أخـرى عنده للاعتدال الذي بسببه يكون الكلام مقبولاً – بعد الاعتناء باللفظ والمعنى – وهي موافقته لمقتضى الحال يقول : " ولحسـن الشعـر

١- عيار الشعر ص ٢٠ .

٢ – عيار الشعر ص ٢١ .

وقبول الفهم إياه علة أخرى ، وهي موافقته للحال الذي يعد معناه لها كالمدح في حال المفاخرة وحضور من يكتب بإنشاده من الأعداء ، ومن يسر به من الأولياء " [1] ، فبهذا يصل الكلام عنده إلى الاعتدال الذي يكون الكلام به حسن الوقوع في النفس ، وما خالف هذا فليس بشعر .

ونلحظ من استعراضنا لكلامه في هذه النقطة عدم تعرضه لقوة العاطفة ، وجودة التصوير ، وروعة الخيال ، التي تفرض على العمل الأدبي بهاءً ، ونبوغاً فذاً . وقد ذكر عقب هذا الحديث استخدام التعريض [2] ، والابتداء بما يشوق السامع ويطرب قلبه ، والذكاء ، وعدم التصريح ، وغير ذلك مما له علاقة بما يسمى في النقد الحديث التقريرية ، والمباشرة في الحديث ، الشعري والأدبي المتميز ، يقول: " والتعريض الخفي الذي يكون بخفائه أبلغ في معناه من التصريح الظاهر الذي لا ستر دونه "[3]

ويبدو من هذا كله أن ابن طباطبا يلح على القول بأن الشاعر له لغة خاصة يترفع بها عن الكلام المباشر . بل لابد له من الرمز والإيماء والتعريض ، دون التصريح والمباشرة . وهذه إحدى أساسات النقد الحديث ، والتي يحاكم بها النصوص .

وفي حديثه عن التشبيهات وأقسامها ومباحثها البلاغية يحث ابن طباطبا الشعراء في إشارة عابرة إلى الإبداع والإجادة في التشبيهات فإن أغار على بعضها فينبغي له أن نضيف إليها إبداعاً جديداً وتلطيفاً لئلا تكون كالشيء المعاد المملول " [4]

١- عيار الشعر ص ٢٣ .

٢- السابق ص ٢٤ .

٣- السابق ص ٢٤ .

٤- عيار الشعر ص ٣٢.

وفـــي إشـــارة إلى ما ينبغي على الشاعر أن يحتذيه ويسير عليه يلح على ما أســـماه الـــنقاد فيما بعد " عمود الشعر " فيوجب على الشاعر أن يلتزم سنن العرب وتقاليدها ، وما كرهوه من الشاعر أن يقوله ومن المتكلم أن يظهره للناس .

ويـــورد بعد ذلك أمثلة لما سنوه واستعملوه ، فلا يعلمه إلا من فقه أساليبهم ، وخبر أخبارهم .

ومـــن هـــذه السنن أنهم لا يبكون قتلاهم حتى تطلب ثأرها فإذا أدركته بكت حينـــئذ قـــتلاها ، وأنهم يعلقون الحلي والجلاجل على السليم ليفيق ، وكفقئهم عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً ، فإن زادت على ألف فقأوا العين الأخرى يقولون : إن ذلك يدفع عنها الغارة والعين ، وكسقيهم العاشق الماء على خرزة تسمى السلوان فيســـلو ، وإيقادهم خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه ناراً ويقولون : أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً إثره [1]، وغير هذه السنن .

ويـــورد أمثلة وشواهد شعرية على هذه التقاليد والسنن ممالا يدرك فهمه إلا ســـماعاً ، وقـــد يكون لها نظائر في أشعار المحدثين من وصف أشياء تعرض في حالات غامضة ، إذا لم تكن المعرفة بها متقدمة عسر استنباطها واستبرد المسموع منها ، وضرب مثلا بقول أبي تمام :

تسعون ألفاً كأساد الشرى نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب

فله مقصد بقوله : قبل نضج التين والعنب ، يعلم بمعرفة الحال الذي قيلت فيه القصيدة.

وكل هذه الأمور أوردها ليبين أهمية معرفة تقاليد العرب وسننها في القول ، وأنـــه ينبغـــي الاحتذاء فيها ومعرفة قرائن الأحـــوال ، وسياقات النصوص ، وما يكون وراء الكلمة الشعرية المعبرة .

وفـــي موضع مهم من كتابه يتحدث في مبحث عقده عن الأبيات المستكرهة الألفاظ [2] ويورد شواهد كثيرة ويُرجع انتقاصه

١- السابق ص ٥٠ .

٢- عيار الشعر ص ٦٧ .

لها إلى أمور استقرأتها فوجدتها كما يلي :

١- تقديـم مـــا حقه التأخير ، بحيث يحتاج الشاعر إليه للقافية والمناسبة ، وهذا يعكس ضعف الشاعر ويمثل له بشواهد منها قول الراعي :

فلما أتاها حبتر بسلاحه مضى غير مبهور ومنصله انتضى

يريد : وانتضى منصله .

٢- وضـــع كلمـــة مكان أخرى لمناسبة الوزن ، ولضيق المقام وللحاجة ، فتكون الكلمة المقحمة بشعة الموضع ، ومثل لها بقول عروة بن أذنية :

واسق العدوّ بكأس واعلم له بالغيب أن قد كان قبل سقاكها

٣- عـدم الترتيب ومخالفة نسق الكلام العربي في إعادة الضمائر ، ومثل له بقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكاً أبو أمـــــــه حي أبوه يقاربه

هـذه مجمل العيوب التي مثل لها وحذر منها ، وعدّها من الكلام المستكره الغلق ، وهو مما يظهر فيه ذوقه النقدي ، وليس هذا حديثنا ولكن من خلال نظراته النقدية ؛ نستطيع أن نجمل بعض القضايا التي تحدث عنها . وهـو يلح على استواء الكلام وحسن مخارجه ، وتمام معانيه ، وصدق الحكاية فيه ، ووقوع كل كلمة في موقعها الذي أريدت له ، من غير حشو مجتلب ، ولا خلل شائن .

وفيما لو اضطر الشاعر إلى اقتصاص خبر في شعره لا يمنعه ذلك من سلاسة التدبير في اللفظ ليطرد المعنى ، ويستقيم على وزن يحتمل أن يحشى بما يطلبه الخبر " [١]

وهـذا مجمـل حديثه عن إيراد خبر داخل شعر ، فهل كان يرى أن لكل غرض ما يناسـبه من أوزان ، كتخصيصه للخبر ما يناسبه ؟؟ أم أنه عرض لهذه المسألة ليثني علـى الأعشى في قصيدته التي ذكر فيها قصة السموأل بن عادياء اليهودي المشهور ؟؟ الذي يظهر أنه يرى مناسبة الأوزان للأغراض التي سبق لها الشعر ، وضرورة

١- عيار الشعر ص ٧٥.

توافــق الوزن مع الغرض من الشعر حتى يتحمل ما يراد منه ، ويشمل المطلوب . وهــناك عيب ألمح له في سياق كلامه ، وربما كان يدخل ضمنا في الذي حصرنا ، وهو الحشو بحيث تقحم الكلمة إقحاماً من غير فائدة حتى ولم لم يكن في القوافي .

ومن قضاياه المبثوثة في كتابه نظرته فيما يكون من الشعر داخلاً في الأشعار المحكمــة [1] المتقنة وهذه يجعل لها شروطاً حتى تصل المطلوب ينبغي احتذاؤها والسير عليها وهي :

١. استيفاء المعاني ، بحيث يشمل الشاعر المعنى الذي أراده في شعره تماماً .
٢. حسن الوصف .
٣. سلاسة الألفاظ بحيث يكون مخرجها كخروج النثر بسهولة وانتظاماً .
٤. لا تكلف فيها ولا استكراه في قوافيها .
٥. لا يظهر منها عجز صاحبها وعيّه .

ومــثل لها بأمثلة كثيرة تدل على كمال عقله ورهافة ذوقه ، منها معلقة زهير ولاميّــته ، ومرثــية أبي ذؤيب الهذلي وغيرها . ومن خلال استعراض لاختياراته للأشعار المحكمة نرى أنه يدور على قضية كبرى وهي " عدم التكلف " فمدار حكمه على الشعر تدفقه سهلاً صادقاً لا تكلف ولا استكراه وما سوى ذلك فهو غث رديء .

ومــن جهــة أخرى فإنه يعقد فصلاً للأشعار الغثة ونستطيع تلمس الأوصاف التي يكون بسببها غثاً رديئاً غير مقبول فيما يلي :

١. رداءة الألفاظ ، وكراهتها على السمع .
٢. تكلف النسج ، وقسر المعاني والألفاظ .
٣. برودة المعاني .
٤. كونها غلقة القوافي .

١- السابق ص ٨٢ .

وقـد مـثل لهذا بشواهد كثيرة يتضح من اختياره لها اهتمامه بعدم التكلف ، واهـتمامه كذلـك بترتيب المعاني والألفاظ وإحكام بناء القصيدة ، بحيث يسلم كل معنى ولفظ للذي بعده فيكون الشاعر بهذا النسج المحكم قد أحسن وأجاد .

ومن خلال مثلٍ يضربه يوضح لنا ابن طباطبا رأيه ؛ فقد أورد قصيدة عينية [1] للأعشى قصمها كلها ، ونعتها بالبرودة والتكلف حاشا ستة أبيات هي :

تقول بنتي وقد قربت مرتحلاً

يارب جنب أبي الإتلاف والوجعا

بذات لوث عقرناةٍ إذا عثرت

فاللعن أدنى من أن أقول لها لعـا

بأكلب كسراء النبل ظاهـرة

ترى من القد في أعناقها قطـعا

ياهوذ إنك من قوم أولي حسب

لا يفشلون إذا ما آنسوا فزعـا

أغرأ بلج يستسقى الغمام بـه

لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا

لا يرقع الناس ما أوهى وإن جهدوا

طول الحياة ولا يوهون ما رقعا [2]

فهذه الأبيات يراها نقية بعيدة عن التكلف ، وهذا مرامه .

وعوداً على بدء نرى ابن طباطبا يتحدث عن السرقات والأخذ من شعر الشعراء [3] فيما بينهم ، ولكنه هنا يثني على من يأخذ المعنى فيعيد صياغته وسبكه ويـبرزه فـي أحسن كسوة ، ويعمل فيها الحيلة ، وتدقيق النظر في تناول المعاني

---

[1] – عيار الشعر ص ١١٠.

[2]– عيار الشعر ص ١١٩.

[3] – السابق ص١٢٣.

واستعارتها وتلبيسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ، وينفرد بشدتها كأنه غير مسبوق إليها .

وكذلك من أخذ من الرسائل كان ألطف وأدق ، وإنما وجه الإبداع ما كان فيه إعادة نسج وصياغة ، وإحسان عرض .

فعلى هذا فإن رأيه في السرقات يجيز الشعراء أن يسطو بعضهم على معاني غيره بشرط الإحسان في عرضه بعد ابتلاعه .

وهناك نوع آخر يشبه هذا وهو أن يعمد الشاعر لمعنى يبدعه هو فيكرره في شعره على عبارات متكررة على عبارات مختلفة ، وإذا انقلبت الحالة التي يصف فيها ما يصف قلب ذلك المعنى ولم يخرج عن حد الإصابة .

ومثل له [1] بقول عبد الصمد بن المعذل في مدح سعيد بن سلم الباهلي :

ألا قل لساري الليل لا تخش ضلة سعيد بن سلم ضوء كل بلاد

فلما مات رثاه فقال :

يا ساريا حيره ضلاله ضوء البلاد قد خبا في باله

ومن قضاياه النقدية أننا نراه يقسم الأشعار من حيث ألفاظها ومعانيها تقسيماً يقترب من تقسيم ابن قتيبة لها .

فيذكر أولاً : الأبيات الحسنة الألفاظ ، الواهية المعاني ويمثل لها بأمثلة كثيرة منها قول جرير :

إن الذين غدوا بلبك غادروا وشلاً بعينك ما يزال معينا

غيضن من عبراتهن وقلن لي ماذا لقيت من الهوى ولقينا

وهو يقصد أن يكون الشعر حسن اللفظ ، سلس العبارة ، ولو استقصيت ما وراءه من معانٍ لم تجد ما يزيدك شيئاً .

---

[1] - عيار الشعر ص ١٣٣ – ١٣٤

وهو يُدْخِل في سابقة له أمراً آخر في هذا النوع وهو إتيان الأبيات في معرض حســن ولكــنه ابتذل على ما لا يشاكله من المعاني [1] وقد كان على غيره أفضل كقول كثيّر :

فقلت لها يا عز كل مصيبة إذا وطنت لها يوما النفس ذلّت

وقــد قال العلماء : لو أن كثيراً جعل هذا البيت في وصف حرب لكان أشعر الناس .

ثانياً : الأبيات الحسنة المعاني الواهية الألفاظ [2]

وهذه في مقابل تلك ؛ تكون شريفة المعاني ، ولكنها أبرزت في ألفاظ أقل منها

ثالثاً : وهناك الأبيات الحسنة الألفاظ والمعاني [3]

وهــذه من تأثره بابن قتيبة ، ولكنه قصر عنه في استقصاء التقاسيم .

ولكــنه ذكــر بعد ذلك الأبيات الواهية الألفاظ القلقة القوافي [4] وهي التي يعــرض لها حشو في ألفاظها أو قوافيها بحيث يقحم كلمة لا حاجة لها ، وإنما لاستكمال التفعيلات ولمراعاة الختام والقافية .

ومثل لها بأمثلة كثيرة منها قول الأعشى :

١- **السابق صـــ ١٦٨.**

أستأثر الله بالوفاء وبالــ عدل وولّى الملامة الرجلا

يريد : الإنسان .

وفي حدود اهتمامه بما ينبغي على الشاعر مراعاته من معرفة سنن العرب ، وفهــم عمــود الشــعر نراه يعقد مبحثاً حول الأبيات التي قصر فيها أصحابها عن

١- السابق ص ١٤٢.

٢- السابق ص ١٤٤.

٣- عيار الشعر ص ١٤٧ .

٤- السابق ص ١٦٨.

الغايــات[1] بمخالفة لسنن العرب وما هم عليه كقول المسيّب بن علس وكان طرفة يسمع له :

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال طرفة : استنوق الجمل !!

وفــي كلمــة نقديــة بليغة جامعة يتحدث ابن طباطبا عن الأمور التي ينبغي للشاعر إتيانها والأمور التي ينبغي له تجنبها .

ونستطيع إجمال هذه الوصايا بذكر أمهات الموضوعات النقدية وتوضيح رأيه فيها .

أولاً : اللفظ والمعنى :

ابن طباطبا متأثر بالجاحظ وبغيره ، ولكنه يرى رأي الجاحظ وهو أهمية اللفظ والمعــنى ليكون الكلام بالغاً الغاية في الحسن ، بل إن النقاد كانوا يذكرون محاسن الألفاظ على أنها شيء ، ومحاسن المعنى على أنها شيء آخر، بينمــا ابن طباطبا يجمع بينها ويرى أن اللفظ جسد والمعنى روح ،

يقول :

" وإذا قالت الحكماء أن للكلام جسداً وروحاً فجسده النطق ، وروحه معناه " [2]

ويرى ابن طباطبا أن على الشاعر أن يبحث عن المعنى الحسن الرائق غير المحــال ، ويوضــحه بــألطف إيماء فإن استشيع لفظة كني [3] عنه كناية حسنة . وعليه تنسيق ألفاظه وتحسينها ، وأن يجعلها أثواباً لمعانٍ مناسبة لها .

ثانياً : السرقات :

تحــدث ابن طباطبا عن موضوع السرقات في عدة مواضع من كتابه بشيء من الليونة بحيث أتاح للشاعر أن يغير على معاني غيره من الشعراء ولكن بشرط أن يحسن عرضها ويغيّر منها إذا أخرجها بحيث لا تكون هي هي بلفظها ومعناها

---

١ - السابق ص ١٥٨ .

٢- عيار الشعر ص ٢٠٣ .

٣- السابق ٢٠٧

الأول فإذا ألبس شيئاً من معنى سبق إليه لفظة جديدة ، وصورة جازلة ذلك وقد يبلغ بها الغاية في الحسن وتكون أكثر ذيوعاً من الأصل .

وتحدث عن نوع آخر من الأخذ وهو أخذ الشاعر معنى له هو وكرره في نفسه وأداره ثم أبدعه من جديد واستفاد منه .

ثالثا : وحدة العمل الأدبي :

يعد ابن طباطبا أو من تنبه إلى هذا الأمر على اعتبار جعل الكلام الشعري كالكلام النثري في الرسائل بحيث يكون مترابطاً مجموعاً أوله وتاليه . ولنقرأ قوله في ذلك فإنه أحسن فيه وأجاد :

" وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاماً ، يتسق به أوله مع آخره على ما ينسقه قائله ، فإن قدم بيت على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل ، والخطب إذا نقض تأليفها ، فإن الشعر إذا أسس تأسيس فصول الرسالة القائمة بأنفسها ، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثال السائرة الموسومة باختصارها ، لم يحسن نظمه بل يحب أن تكون القصيدة كلها كلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها نسجاً وحسناً وفصاحة وجزالة ألفاظ ودقة معانٍ وصواب تأليف ، ويكون خروج الشاعر من كل معنى يضيفه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفا ، على ما شرطناه في أول الكتاب ، حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً ، كالأشعار التي استشهدنا بها في الجودة والحسن ، واستواء النظم ، لا تناقض في معانيها ، ولا وهي في مبانيها ولا تكلف في نسجها ، تقتضي كل كلمة ما بعدها ، ويكون ما بعدها متعلقاً بها مفتقراً إليها " [1].

وحديثه عن وحدة العمل الأدبي كما أسلفت في أول الفصل له فضله وسابقته وحسن تأتيه له رقم ما أثاره الدكتور غنيمي هلال من كونه لم يأت بجديد

---

[1]- السابق ص٢١٣.

حيث كان يعني الخروج من معنى إلى معنى ، والصحيح أنه تلمس شيء ضرورة أن يكون العمل الأدبي ذا وحدة متماسكة مترابطة .

رابعاً : براعة الاستهلال ومناسبة الحال :

يلح ابن طباطبا على هذه بالقضية في غير ما وضع من كتابه ، , ضرورة المناسبة للحال ، ويتجنب ما يعاب عليه ويذم به من مخالفة لما ينبغ يكون عليه .

ويمثل لذلك بأمثلة عديدة توضح مراده من كقول ذي الرمة :

ما بال عينك منها الماء ينسكب كأنها من كلى مغرية سر

خامسا : عمود الشعر العربي :

لازال هذا الموضوع أهم قضايا النقد الأدبي القديم ، ولذلك لم يهمل طباطبا بل ذكره في مواضع كثيرة حيث ألزم الشاعر بمعرفته وأورد شواهد الشعراء فيها عمود الشعر العربي ، وخاطب العرب بما لم يكونوا عليه و سبقهم ، مستبشعاً لها عادّاً إياها من الغث المستبرد المستكره .

سادساً : القديم والجديد :

كان لابن طباطبا في كتابه موقف جميل من شعر المولدين . فقد كان في عصره الميل من اللغويين إلى القديم وتفضيله ، ولكنه لم يتبعهم بل كان بشعر المولدين ويستحسن حسنه كما مر معنا في مواضع سبقت ويقول عن المولدين :-

" وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم ، ولطفو تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم " (١)

١- عيار الشعر ص ١٢.

سابعاً : تعريف الشعر :

عــرف الشعر ابن طباطبا كما قدمنا تعريفاً مميزاً ، يفرق بينه وبين النثر بالوزن ، وأنه لابد له من طبع وذوق قبل الوقوف على عروضه وأيضاً لابد له من أدوات مختلفة من معرفة علم النحو واللغة ، والوقوف على سنن العرب ، وأمثالهم ولابد فيه من تمكن القوافي بحيث تنزل أوطانها .

يقول :

" كلام منظوم بان عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطبتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل به عن جهته مجته الأسماع وفسد على الذوق " [1]

ثامناً : الطبع والفطرة :

هــذه من أهم المهمات للشاعر بأن يصدر شعره على سجية نفسه دون تكلف ولا إغــراق ولا جــبر ، ولا اســتكراه ، وقد كرر ويلاً وأعاد مراراً نفيه للتكلف والاستكراه ، بل إنه جعله مدار كل عيب ، وجعل الطبع والسلامة أصل كل حسن.

تاسعاً : لغة الشعر :

نلمــس مــن خلال كلام ابن طباطبا حرصه على توجيه الشاعر إلى التلميح والإيماء والتصوير دون التصريح والمباشرة والتقرب ، حتى لو أراد نقل خبر لابد أن يتلطف له بحيلة يجعله فيها مناسباً لأن يكون شعراً .

هو يريد أن يجعل للشاعر قاموساً خاصاً يتحدث به تختلف عن لغة المتحدث شيئاً كثيراً .

ثانياً : قدامة بن جعفر

كــان الفصــل لقدامة في كتابه الأشهر (نقد الشعر) هو أن جعله لنقد الشعر تخلــيص جيده من رديئه ولو كان ذلك في أصل نيته دون قضية قوميته بما ذكر آنفا .

---

[1] - السابق ص ٥ .

وهـذا الكتاب يتميز بالتنظيم والتقسيم ، ولعل في تأثره بكتب الفلسفة اليونانية وبالأخص كتب أرسطو ما يوضح سبب ذلك لنا .

ومـن مظاهـر تأثره بالفكر اليوناني جعله الكتاب فصولاً ثلاثة جعل الفصل الأول تعـريفاً للشعر وكلمات حوله ، وجعل الفصل الثاني بياناً لنعوت الجودة في الشعر ، وجعل الفصل الثالث تبياناً لنعوت الرداءة في الشعر وعيوبه .

وأول الملامح النقدية في كتابه حديثه عن تعريف الشعر ، وحدة المائز له .

فقد عرّفه تعريفاً موجزاً بليغاً فقال : " إنه قول موزون مقفى يدل على معنى " [1]

وهـو بـتعريفه هذا يخرج غير القول ، والكلام غير الموزون ، وغـير المقفى ، والذي لا يدل على معنى .

وقد أهمل في هذا التعريف اشتراط النية لأنه قد يتفق في القرآن وكلام الناس شيء مـوزون مقفـى يدل على معنى ولكنه لا يكون شعراً أبداً ، كقول المصطفى عليه الصلاة والسلام : **أنا النبي لا كذب أنا بن عبد المطلب**

وفي مقدّماته الضرورية في الفصل الأول كلام كأنه يجعله طريقة يسير عليها ويبنـي فوقها ، يظهر لنا منها جعله الشعر صناعة تلحقهما الجودة والرداءة وبين هاتيـن مـا أسماه الوسائط فينبغي للشاعر أن يحرص على التجويد ليصل لغاية ؛ وذلك بتلمس صفات الشعر ونعوت الجودة فيه والابتعاد عن نعوت الرداءة وصفاتها

يقـول : " وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعة ، والرفـث والنزاهة ، والبذخ والقناعة ، والمدح والعضيهة ، وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة : أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة " [2]

ومـن قضاياه التي تفرد بها اهتمامه بالإجادة . والإجادة البنائية والأسلوبية فقط ، فلو مدح شاعر شيئاً في قصيدة ، ثم عادوا ذمه في قصيدة أخرى وأجاد لم يعب عليه. بل إن ذلك عنده دليل قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها . [1]

١- صـ ١٧ نقد الشعر لأبي الفرج قدامة بن جعفر تحقيق كمال مصطفى – الطبعة الثالثة .

٢- عيار الشعر ص ١٩.

وعلـــى هـــذا فلا حجة لمن عاب امرأ القيس في فحشه ولا مناقضته لنفسه ؛ لأنه تصرفٌ في الصنعة وقوة قدرة .

والحـــق أنه جانب الصواب ؛ فإن الشاعر والحالة هذه لا يلام إن أحسن ، ولا يثنى عليه إن أساء ، في اللفظ والشكل ، وفي المعنى والمضمون ، فليست المسألة مسألة بناء وشكل ، دون الانتباه للمعاني ، والوقوف عند المبدأ الواحد .

ولو وجد النقاد تأويلاً لكلام الشاعر المتناقض لم نعتبر ذلك عيباً على الشاعر .

وفـــي ظل تقسيماته المنطقية استخرج من حد الشعر أسبابه ومفرداته : وهي اللفظ والمعنى والوزن والتقفية .

فنعوت الجودة تقوم عليها وعلى ائتلافها مع بعضها فتأتلف كالتالي :

اللفظ مع المعنى والوزن ، والمعنى مع الوزن والقافية .

وصارت بهذا " أجناس الشعر ثمانية وهي الأربعة المفردات البسائط التي يدل عليها حده ، والأربعة المؤلفات منها " [٢]

وفي الفصل الثاني/[٣] حيث تعرض لنعوت الجودة في الشعر اتضح تقسيم الأجناس ؛ فقد جعل لكل عنصر نعت جودة ، ولائتلافها مع غيرها كذلك .

فقـــد جعـــل من نعوت الجودة في اللفظ " [٤] أن يكون سمحاً ، سهل مخـــارج الحروف من مواضعها عليه رونق الفصاحة ، مع الخلو من البشاعة .

وهذه الصفات لم يأت فيها بجديد بل طلب من الشعراء – كما طلب غيره من النقاد – السهولة واليسر والسماحة .

ونلحظ كذلك أنه يتحدث عن نعت الجودة في اللفظ مستقلاً تماماً عن المعنى .

١- السابق ص ٢٠ .

٢- عيار الشعر ص ٢٦ .

٣- السابق ص ٢٨ .

٤ – السابق ص٢٨.

وجعل من نعوت الجودة في الوزن : [1] أن يكون سهل العروض ، ومثل بأبيات وقصائد لشعراء متنوعين ، مثل أبيات المنخل اليشكري :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

الكاعب الحسناء ترفل في الدمقس وفي الحرير

وجعل من أهم نعوت الجودة في الوزن الترصيع [2] وهو فن بلاغي ، ولكنه يشترط فيه عدم التكلف وإحسان الصنعة . وهو يعني تصيير مقاطع البيت على سجع أو شبيه به بشامة بن الغدير :

هوان الحياة وخزي الممات وكلا أراه طعاماً وبيلاً

وجعل نعت القوافي [3] أن تكون عذبة الحرف سلسلة المخرج . وأن يقصد لتصيير مقطع المصراع الأول في البيت الأول من القصيدة مثل قافيتها ، بل قد يتكرر هذا في بعض أبيات القصيدة عند المجيدين من الشعراء ، وقد لا يكون الصريع في البيت الأول بل يأتي بعده .

وقال في هذا :

" وإنما يذهب الشعراء المطبوعون المجيدون إلى ذلك ، لأن بنية الشعر إنما هو التسجيع والتقفية فكلما كان الشعر أكثر اشتمالاً عليه ؛ كان أدخل له في باب الشعر ، وأخرج له عن مذهب النثر " [4]

أما نعوت المعاني [5] التي ينبغي أن تكون فيها فقد أطال الكلام فيها وفرّع وقسم ، وقصّر وأجاد وجعل جماع وصف هذه النعوت " أن يكون المعنى مواجهاً للغرض المقصود ، غير عادل

١- السابق ص ٣٥.

٢- السابق ص ٤٠ .

٣- السابق ص ٥١ .

٤- السابق ص ٥٨.

٥ السابق ص ٥٨.

عن الأمر المطلوب " [1]

وقبل أن يلج في صميم نعوت المعاني الدال عليها الشعر قدّم بمقدمة طرح فيها مسألة نقدية من مهمات مسائل الشعر والأدب وهي قضية الغلو والاقتصار ؛ أي هل يذم الشاعر إذا بالغ في الوصف حتى بلغ به المستحيل عقلاً ؟ أو ينبغي له أن يبلغ به الحد الأوسط ويقتصر ؟

يقول :

" إن الغلو عندي أجود المذهبين ، وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً ، وقد بلغني عن بعضهم أنه قال : أحسن الشعر أكذبه " [2]

وكما ترى فهو يؤيد الغلو لأن الشاعر إذا سلكه إنما يريد به المثل وبلوغ النهاية في النعت ، فإن اقتصر على الواقع كان أقل بلاغة .

والمعاني واسعة ومتنوعة يصعب الحديث عن نعوت الجودة فيها ، فلذلك وضع الأغراض والمعاني الرئيسة التي يكثر ترددها في كلام الناس وأشعارهم وهي :

المديح ، والهجاء ، والمراثي ، والتشبيه ، والوصف ، والنسيب .

وجعل لكل معنى وغرض نعتاً يبين ما ينبغي أن يكون عليه .

فالمديح أولاً جعله مقتصراً على الفضائل النفسية الأربع وهي : العقل والشجاعة والعدل والعفة ، فإن مدح الشاعر بها : " كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً ، ثم قد يجوز مع ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض والإغراق فيه دون البعض " [3]

وكل ما سوى ذلك من الفضائل داخل ضمناً مع هذه فالعقل والحلم . والعفة من أقسامها : القناعة وقلة الشره ، وطهارة الإزار . والشجاعة من أقسامها : الحماية

١- السابق ص ٥٨.

٢- السابق ص ٦٢.

٣- االسابق ص ٦٦.

والدفـــاع ، والأخذ بالثأر والنكاية بالعدو والمهابة . والعدل من أقسامه : السماحة ، والأنظلام والتبرع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقرى الأضياف .بل وفرّع تفريعاً آخر فركب الفضائل مع بعضها ، وكل الذي نتج عن هذا التركيب يجوز أن يمدح الرجل به ، كتركيب العقل مع العفة ، فإنه ينتج : التنزه ، والاقتصار على أدنى عيش .

وتركيـــب الشـــجاعة مع العفة ينتج : إنكار الفواحش ، والغيرة على الحرم وما جانس ذلك .

وتركيـــب العقـــل مع الشجاعة ينتج : الصبر على الملمات ، ونوازل الخطوب ، والوفاء بالإيعاد .

ويضع بعد ذلك شواهد للمدح بهذه الفضائل ، ولو تجاوز بها الشاعر حد المعقول والمفهـــوم لأن المبالغة تقتضي تأكيد الأمر كما أصّل هو هذا الأمر في بداية كلامه عن نعوت المعاني .

ولكـــن هل نسلّم له بهذه النظرية ؟ وهل المديح محصور في هذه الفضائل وما تركب بينها؟

نقـــول : لا فمازالـــت العرب تمدح بالقوة الجسدية وجمال البنية وما إلى ذلك فأيـــن هـــذا من هذا ؟ ولكن قدامة يحمد له تفوقه على زمنه بالاستنطاق والتبيين والخلوص من مقدمات إلى نتائج .

وأمـــا الهجـــاء [1] فقـــد جعل طرائقه ضد أبواب المديح فعلى الشاعر إن أراد الفضـــل أن يعمد إلى أضداد الفضائل فيهجو بها فيكون بذلك قد أصاب وقد مثّل له بهذين البيتين السقيمين :

إن يغدروا أو يفجروا أو يبخلوا لا يحفلوا

يغدوا عليك مرجليـــ ن كأنهم لم يفعلـــوا

وقال فيهما :

---

[1]- السابق ص ٩٢.

" فمـــن جودة هذا الهجاء أن الشاعر تعمد أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم ، لأن الغدر ضد الوفاء ، والفجور ضد الصدق ، والبخـــل ضد الجـــود ، ثم أتى بعـــد ذلك بضد أجل الفضائل وهو العقل " [1]

وهذا لا يسلم له بنفس الطريق التي لا يسلم فيها فه في باب المديح ، حيث قصر الـــذم علـــى أضداد الفضائل وهذا لا يتفق مسير العربية فما زال الشعراء يهجون بالآباء والقبائل والأشكال .

وقـــد استشـــهد بشـــواهد كثيرة كلها استكملت الجودة بكونها هجاء بأضداد الفضائل ، وقد يجتمع في الأبيات نقيضة واحدة فأكثر .

ثـــم تحـــدث عن نعـــت المراثي [1] فلم يفرق بينها وبين المدحة إلا بلفظ " كـــان " و " تولـــى " و " قضى نحبه " وجعل التأبين كما جعل الرثاء ولكن التأبين يختلف عنده بأنه ذكر لبكاء أشياء اشتهر بها الهالك كقولك لمن كان مشتهراً بالجود " فقدتك أيام الشدة " .

وإذا كـــان الحال في المراثي كما قال قدامة فأين حرارة العاطفة ؟ وأين تدفق المشاعر ؟ وأين صدق القول ؟ إن المادح يتكلم للعطاء ، وإن الراثي يتكلم للوفاء ، فشتان بينهم ، وما أبعد هذا القول ، وكم جنى على الراثين .

وفـــي كلامـــه عن المراثي نلمح ملامح نقدية في مواضع كثيرة ، لا نستطيع تجاوزها ، فمن ذلك قوله :

" فإنـــه ليس من إصابة المعنى أن يقال في كل شيء تركه الميت : إنه يبكي عليه ، لأن من ذلك ما إن قيل إنه بكى عليه كان سبة وعيباً لا حقين به " [2] ويمثل علـــى ذلـــك بما لو قال قائل بكتك الخيل مع أنه كان يكدها لم يصح منه ذلك ، بل يقول : استراحت الخيل.

وهذه نظرة جميلة لها صلة بعمود الشعر العربي وما ينبغي أن يكون عليه.

---

١ - السابق ص ٩٣.

٢- السابق ص ١٠٠.

وهـــو كذلك ف المراثي يجعل الثناء بذكر الفضائل النفسية لا غير ، ويستشهـــد بأبيات كثيرة تدور حول هذا ولكنه لم يورد عيون الرثاء العربية [1].

وأما حديثه عن نعت الجودة في الغرض الرابع وهو التشبيه فهو بلاغي صرف لا حاجة لنا به .

وبعد ذلك يتحدث عن نعت الجودة في الوصف [2] فيعرف الوصف بأنه : " ذكـــر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات " ويرى أن غالب أوصاف الشعراء تقع على الأشياء المركبة ، فأبلغ ما يكون الشعر والوصف حينما يكون بالإتيان بأظهر الأوصاف التي تركب منها الموصوف .

وقد استشهد بشواهد كثيرة منها قول عبد الرحمن بن عبد الله القسّ في سلامة :

إذا ما عج مزهرها إليها وعاجت نحوه أذن كرام

فأصغوا نحوها الأسماع حتى كأنهم وما ناموا نيـــام

وأما النسيب فإنه تحدث عن نعت الجودة فيه ، وعرفه بأنه " ذكر خلق النساء وأخلاقهن ، وتصرف أحوال الهوى به معهن " [3]

وفـــرق بيـــنه وبين الغزل بأن الغزل المعنى أو الشوق إلى النساء ، وسبب الصبوة لهن ، والنسيب ذكر الغزل .

ويجعل النسيب الذي يتم به الغرض بأنه : " ما كثرت فيه الأدلة على التهالك في الصبابة ، وتظاهرت فيه الشواهد على إفراط الوجد واللوعة ، وما كان فيه من التصابي والرقة ، أكثر مما يكون فيه من الخش والجلادة ، ومن الخشوع والذلة ، أكـــثر ممـــا يكـــون فيه من الإباء والعز ، وأن يكون جماع الأمر ما ضاد التحفظ

---

١ السابق ص ١٠١.

٢- السابق ص ١٠٨.

١- السابق ص ٢٣.

والعـزيمة ، ووافـق الانحـلال والرخاوة فإذا كان النسيب كذلك فهو المصاب به الغرض " [1]

ولم ير قدامـة أجمع ولا أوجز في كل هذا من قول السلاماني الأزدي :

فلم تدع الأرواح والماء والبلى من الدار إلا ما يشوق

ويـرى قدامة أن المجيد من الشعراء إذا قصد النسيب هو من يصف من أحوالـه وما يجده ما يعلم به كل ذي وجد حاضر أو دائر . ومثل عليه بأبيات أبي صخر الهذلي الفذة :

أما والذي أبكى وأضحك والذي

أمـات وأحيا والذي أمره الأمر

لقد كنت أتيها وفي النفس هجرها

تباتاً لأخرى الدهر ما طلع الفجر

فما هو إلا أن أراها فجـاءة

بأبهت لا عرف لدي ولا نكـر

وأنسى الذي قد كنت فيه هجرتها

كما قد تنسيّ لبّ شاربها الخمـر

وحديثـه عن معنى الجودة في النسيب من أجود ما كتب وقد أصاب فيه المميّز .

ذلـك لأنـه يقوم على الروح الشاعرية والقوة في الصفة ، مما يجعل المحبين يتأوّهون ويتذكرون .

وهذه الـتي سبقـت إنمـا هـي وجـوه من جملة معاني الشعر أما ما يعم تلك المعاني فإنه ذكـره بعد ، وذكـر منـه عدة فنون تدخل في البلاغة فذكر " صـحـة التقـسـيم " بحيـث تستـوفي الأقسـام الموضوعة . وذكر صحـة

---

١ - السابق ص ١٢٣ .

المقـــابلات [١] ، وصـــحة التفســـير [٢] ، والتتمـــيم [٣] والمبالغة [٤] والتكافؤ [٥] ، والالتفات [٦] .

وهذه الفنون تدخل في النقد من باب الحرص على الإجادة فيها جميعاً أما ذات الفن فهو بلاغي صرف .

وبعـــد أن تحدث قدامة عن نعوت المعاني وهي القسم الرابع من أقسام الشعر المفردات ، يبدأ في التحدث عن المركبات .

فإن يجعل الائتلاف اللفظ مع المعـــنى [٧] نعتاً عاماً يدخل فيه عدة نعوت .

وهذا النعت هو تآلف اللفظ مع المعنى بحيث ينتج عن هذا التآلف أنواع هي :

١ – المســـاواة وذلك بأن يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا زيادة ولا نقصان .

٢ – الإشارة وذلك بأن يكون اللفظ مشتملاً على معانٍ كثيرة .

٣ – الإرداف بأن يأتي الشاعر بالمرادف .

٤– التمثيل وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر ، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه .

٥ – المطابقة والمجانسة .

كما ترى فكل ما سبق فنون بلاغية ، ولكنه في الاستشهاد والتمثيل يعيب على بعض الشعراء المخالفة لهذه الأوصاف فلذلك ذكرناها .

وهناك من نعوت المركبات : نعت ائتلاف اللفظ [١] والوزن وهو يعني به :

---

[١]– السابق ص ١٣٣.

[٢]– السابق ص ١٣٥.

[٣]– السابق ص ١٣٧.

[٤]– السابق ص ١٤١.

[٥]– السابق ص ١٤٣.

[٦]– السابق ص ١٤٦.

[٧]– السابق ص ١٥٠.

" أن تكـــون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بينت ، لم يضطر الأمـــر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها ، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها وهي الأقوال على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا تقديم ما يجب تأخيره منها " [٢]

ويقـــول : " ومن هذا الباب أيضاً ألا يكون الوزن قد اضطر إلى إدخال معنى ليس الغرض في الشعر محتاجاً إليه .

ومـــن نعوت المعاني المركبة : نعت ائتلاف المعنى والوزن [٣] ؛ وذلك بأن تكون المعاني تامة مستوفاة لم يضطر الوزن إلى نقصها .

ومن نعوت المركبات أيضاً : نعت ائتـــلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت [٤]

ويدخل تحته التوشيح وهو أن تكون كلمة القافية مشهوداً لها بذكرها أول البيت.

والإيفال وهو إفادة القافية معنى جديداً .

وفـــي الفصـــل الثالث يتحدث حديثاً مسهباً عن عيوب الشعر ونعوت الرداءة فيه ، وهذه الجوانب تتصل بالنقد الخالص .

وقـــد رتب أجناس الرداءة كما رتب نعوت الجودة فبدأ بعيوب اللفظ [٥] وذكر منها: أن يكون ملحوناً وجارياً على غير سبيل الإعراب واللغة ، وأن يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل إلا في الشذوذ ، وهو الحوشي الذي أثنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه على زهير ابن أبي سلمى بتركه .

وقد أجاز قدامة للقدماء الإغراب والشذوذ لأن ذلك طبعهم وكانوا يتحدثون به ، أما التكلف والشذوذ فهو يأتي بما ينافر الطبع وينبو عن السليقة .

---

[١]- السابق ص ١٦٦.

[٢]- السابق ص ١٦٦.

[٣]- السابق ص ١٦٧.

[٤]- السابق ص ١٦٧

[٥]- السابق ص ١٧٠

المقـابلات [١] ، وصـحة التفسـير [٢] ، والتتمـيم [٣] والمبالغة [٤] والتكافؤ [٥] ، والالتفات [٦] .

وهذه الفنون تدخل في النقد من باب الحرص على الإجادة فيها جميعاً أما ذات الفن فهو بلاغي صرف .

وبعـد أن تحدث قدامة عن نعوت المعاني وهي القسم الرابع من أقسام الشعر المفردات ، يبدأ في التحدث عن المركبات .

فإن يجعل الائتلاف اللفظ مع المعـنى [٧] نعتاً عاماً يدخل فيه عدة نعوت .

وهذا النعت هو تآلف اللفظ مع المعنى بحيث ينتج عن هذا التآلف أنواع هي :

١ – المسـاواة وذلك بأن يكون اللفظ مساوياً للمعنى لا زيادة ولا نقصان .

٢ – الإشارة وذلك بأن يكون اللفظ مشتملاً على معانٍ كثيرة .

٣ – الإرداف بأن يأتي الشاعر بالمرادف .

٤ – التمثيل وهو أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر ، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عما أراد أن يشير إليه .

٥ – المطابقة والمجانسة .

كما ترى فكل ما سبق فنون بلاغية ، ولكنه في الاستشهاد والتمثيل يعيب على بعض الشعراء المخالفة لهذه الأوصاف فلذلك ذكرناها .

وهناك من نعوت المركبات : نعت ائتلاف اللفظ [١] والوزن وهو يعني به :

---

[١]- السابق ص ١٣٣.

[٢]- السابق ص ١٣٥.

[٣]- السابق ص ١٣٧.

[٤]- السابق ص ١٤١.

[٥]- السابق ص ١٤٣.

[٦]- السابق ص ١٤٦.

[٧]- السابق ص ١٥٠.

" أن تكـــون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بينت ، لم يضطر الأمـــر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها ، وأن تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها وهي الأقوال على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن إلى تأخير ما يجب تقديمه ، ولا تقديم ما يجب تأخيره منها " [٢]

ويقـــول : " ومن هذا الباب أيضاً ألا يكون الوزن قد اضطر إلى إدخال معنى ليس الغرض في الشعر محتاجاً إليه .

ومـــن نعوت المعاني المركبة : نعت ائتلاف المعنى والوزن [٣] ؛ وذلك بأن تكون المعاني تامة مستوفاة لم يضطر الوزن إلى نقصها .

ومن نعوت المركبات أيضاً : نعت ائتـــلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت [٤]

ويدخل تحته التوشيح وهو أن تكون كلمة القافية مشهوداً لها بذكرها أول البيت.

والإيغال وهو إفادة القافية معنى جديداً .

وفـــي الفصـــل الثالث يتحدث حديثاً مسهباً عن عيوب الشعر ونعوت الرداءة فيه ، وهذه الجوانب تتصل بالنقد الخالص .

وقـــد رتب أجناس الرداءة كما رتب نعوت الجودة فبدأ بعيوب اللفظ [٥] وذكر منها: أن يكون ملحوناً وجارياً على غير سبيل الإعراب واللغة ، وأن يركب الشاعر منه ما ليس بمستعمل إلا في الشذوذ ، وهو الحوشي الذي أثنى عمر بن الخطاب رضي الله عنه على زهير ابن أبي سلمى بتركه .

وقد أجاز قدامة للقدماء الإغراب والشذوذ لأن ذلك طبعهم وكانوا يتحدثون به ، أما التكلف والشذوذ فهو يأتي بما ينافر الطبع وينبو عن السليقة .

١- السابق ص ١٦٦.

٢- السابق ص ١٦٦.

٣- السابق ص ١٦٧.

٤- السابق ص ١٦٧

٥- السابق ص ١٧٠

وذكـــر مـــن عيوب اللفظ أيضا المعاظلة [1] وهي وإخلة الكلام بعضـــه مع بعض ، وهي تقتصر على ما لم يكن من جـــنس بعضه ، فهي استعارة فاحشة عند قدامة.

ومن عيوب الوزن [2] كل ما ضادّ نعوت الجودة فيه وذلك بأن يخرج الشاعر عـــن العروض ، من الإفراط في الزحافات والعلل ، والتضليع ، ومن أهم شواهده قصيدة عبيد بن الأبرص التي جعلها بعضهم معلقة .

ومـــن عـــيوب القوافي [3] التجميع ، وذلك بمخالفة روي البيت الأول بشطره الثاني مع تهيؤ البيت لمناسبة الشطر .

ومنها الإقواء وهي مخالفة حركة الروي ، ومنها الإيطاء وهو اتفاق القوافي ، ومنها السناد وهو اختلاف تصريف القافيتين .

والشـــاهد مـــن هـــذا كله أن العيوب عموماً تخل بجودة الشعر ، وقدامة هنا اســـتوفى فـــي مجمـــل هذه العيوب سواء منها ما يتعلق باللفظ أم ما يتعلق بالوزن والقافية ، والخروج عنها خروج عن الشعر وعموده .

ثم عتب بعد ذلك بعيوب المعاني [4] ورتبها كما رتب نعوت الجودة فيها .

فبدأ بالمديح وجعل العيب فيه أن يكون المدح بخلاف الفضائل النفسية ، ومثل بقول عبد الله بن قيس الرقيات لمصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء

وقال لعبد الملك :

فعتب عليه عبد الملك ، وقد وصف قدامة هذا الشاهد بأنه من الأمثلة الجياد علـــى مـــا ذكـــر ومن عيوب الهجاء فقد جعل جماع القول فيها : " إنه متى سلب

---

[1]- السابق ص ١٧٦.

[2]- السابق ص ١٨٠ .

[3]- السابق ص ١٨٥.

[4]- السابق ص ١٨٨.

المهجو أموراً لا تجانس الفضائل النفسية كان ذلك عيباً في الهجاء ، مثل أن ينسب إلى أنه قبيح الوجه أو صغير الحجم ، أو ضئيل الجسم ، أو مقتر ،أو معسر .." [1]

فلـــو هجـــا الشاعر غيره بهذه الأمور كان مخالفاً للصواب !!! ولعمري إن المخالفة قول قدامة لأنه خالف ما كان عليه العرب وساروا .

أما عيوب المراثي والتشبيه والوصف فهذه لم يذكرها وإنما أطلقها في كل ما ضاد نعوت الجودة في هذه الأصناف الثلاثة .

وأما الغزل [2] فقد أورد أبياتاً تحققت فيها العيوب بأن كانت خشنة الألفاظ ، أو لم يكن فيها تذلل ورقة كقول أبي إسحاق الأعرج :

فلما بدا لي ما رابني نزعت نزوع الأبي الكريم

ثـــم يستطرد في الحديث عن العيوب العامة للمعاني [3] ؛ فهي عنده بالضد من نعوت الجودة فيذكر منها :

فســـاد القسم ، والتكرير ، ودخول أحد القسمين في الآخر ، وفساد المقابلات ، وفساد التفسير ، والاستحالة والتناقض ، وإيقاع الممتنع : وهو غير الغلو والمبالغة لأنه خروج عن المتصوّر كقول أبي نواس

يا أمين الله عش أبدا دم على الأيام والزمن

ومخالفة العرف ، ونسبة الشيء إلى ما ليس فيه .

والإخـــلال : بأن يترك من اللفظ ما به يتم المعنى والحشو ، والتثليم ، والتذنيب ، والتغيير والتفصيل .

وذكر بعد ذلك عيوب ائتلاف المعنى مع الوزن [4] وحدد منها المقلوب ، والمبتور وهي مخلة يعمد إليها الشاعر لحاجة المعنى .

١- السابق ص ١٩٢.

٢- السابق ص ١٩٧.

٣- السابق ص ١٩٩.

٤- السابق ص ٢٢١.

وبعـــد .. فهـــذه قضـــاياه الـــنقدية ؛ نراه يتحدث عن الألفاظ وجودتها وعيوبها ، والمعانـــي وجودتهـــا وعيوبها ، كل منهما على حدة دون التنبيه على أهمية جعلها ســـوياً ، ورغم ذلك فهو يبدع في كلامه وتقسيماته في هذه النقطة فقط .

ونراه يتحدث أيضاً عن التكلف وندمه ، ونراه يعود إلى عمود الشعر العربـــي ويذم من خالفه ، ونلمس من خلال تعليقه على بعض الأبيات ذوقاً نقدياً . مما جعل كتابه كتاباً يقرب إلى النقد .

ولكنه رغم ذلك أهمل كثيراً من الأبواب النقدية التي كان يجدر به أن يتحدث عنها ، كالسرقات ، والبناء الداخلي الفني ، والعاطفة والخيال ، والتصوير .

والحـــق أن تقســـيماته تلـــك لها نصيب من الدقة والجودة ، ولكنه حكّمها في الشـــعر، ولـــم يحكـــم الشعر فيها بمعنى أنه كان يعتسف لأحكام لموافقة تقسيماته المنطقية .

ثالثا : ابن رشيق

والآن .. نحـــن فـــي الجولة الأخيرة مع ناقد آخر ، ومع كتاب آخر نلمس فيه أبـــرز القضايا النقدية ؛ ألا وهو كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علـــي الحسن بن رشيق القيرواني ، والذي يعد أفضل ما كتبه المغاربة في النقد في تلك العصور ، وقد سبق أن بيّنت أن ترتيب الكتب إنما كان للأسبقية في الزمن لا للتقدم العلمي .

وحيـــن نـــبدأ الاستقرائية في الكتاب لالتماس القضايا النقدية ؛ نواجه حديثه عن تفضيل الشعر على النثر [1] فإنه يعرض المفاضلة وآراء الناس فيها ، ولا يلبث أن يرجح شأن الشعر لوزنه ونظمه الذي هو مدار الجمال والروعة فيه .

---

١ – العمدة – ابن رشيد – دار الجيل – تحقيق عبد الحميد – الطبعة الخامسة صـــ ١٩ ج ١

فالكلام إذا نظم " كان أصون له من الابتذال وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال " [١] وهو يجعل من مزايا الشعر سهولة حفظه وإمكانية التوثق منه ، فلم يبق من نثر العرب عشرة .

ثم نراه يتحدث عن التكسب بالشعر ويذكر أنفة العرب الأوائل منه ، ويقلّل منه ، ولكن نظرته إلى هذه القضية لم تكن فنية متكاملة فلم يتحدث عن أنه يضعف الشعر ويقلّل من حرارة الشعر التي اشتهر بها العرب . ولكنه أوردها بنظرة الأنفة وعلوّ الهمة التي تمنع صاحبها من التذلل بسؤال الملوك .

وقد نلمس من خلال القصص والوقائع التي أوردها اهتمامه بالنظرة النقدية وهذا ما نهتم به ؛ حيث أثنى على شعر ابن أبي ربيعة والعباس بن الأحنف ، وجميل ابن عبد الله بن معمر لأنهم امتنعوا عن التكسب والمدح تظرفاً . [٢]

وحول القديم والجديد يمتعنا ابن رشيق برأي وسط بعد عرضه لآراء الفريقين يقول : " فليس من أتى بلفظ محصور يعرفه طائفة من الناس دون طائفة لا يخرج من بلده ولا يتصرف من مكانه كالذي لفظه سائر في كل أرض ، معروف بكل مكان وليس التوليد والرقة أن يكون الكلام رقيقاً سفسافاً ، ولا بارداً غثاً ، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون هو شيئاً خشنا ولا أعرابياً جافياً ولكن حال بين حالين .. " [٣]

وقد استحسن أقوالاً نقلها لأصحاب القول بقبول الحسن في أي عصر كان صاحبه واستحسنها وأيد أصحابها .

ويقول في موضع آخر موضحاً رأيه في قبول كل :

١- السابق ص ١٩ ج ١ .

٢- السابق ص ٨٠ج١.

٣- السابق ص ٩٣ ج١.

" وإنمـــا مثل القدماء والمحدثين كمثل رجلين ابتدأ هذا بناء فأحكمه وأتقنه ، ثم أتى الآخر فنقشه وزينه ، فالكلفة ظاهرة على هذا وإن حسن ، والقدرة ظاهرة على ذلك وإن خشن " [1]

وهي كلمة تنسب الكلفة في كلام المحدثين ولكنه مقبول على كل حال .

وقـــد أورد ابن رشيق تصنيفاً للشعراء وأقسامهم وآراء الناس في المقدّمين من الشـــعراء والجاهليـــن والإســـلاميين والمخضرمين والمحدثين ، نلمح فيه بعض النظرات النقدية .

يقـــول " وإنما سمّي الشاعر شاعراً لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره ، فإذا لم يكـــن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه أو استظراف لفظ وابتداعه ، أو زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني ، أو نقص مما أطاله سواه من الألفاظ أو صرف معـــنى إلى وجه عن وجه آخر ؛ كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة ، ولن يكن إلا فضل الوزن ، وليس بفضل عندي مع التقصير " [2]

هو بهذه الكلمات يركز على أهم القضايا النقدية على الإطلاق من الألفاظ والمعاني وما يتعلّـــق بهما . بل إنه بنظرته المرهفة يضع المبضع على الجرح الذي لم يفتقه غـــيره ، وهو ذلك الشعور الداخلي الذي يحسه الشاعر ويختلف به عن غيره فيه ، فلا يكفي نظم الوزن فقط بل لابد من أن يكون مليئاً بالعاطفة والشعور .

ثم في موضع آخر نراه يتحدث عن حدّ الشعر وبنيته [3] قال :

" الشـــعر يقـــوم بعد النية من أربعة أشياء وهي : اللفظ ، والوزن ، والمعنى والقافية ، فهذا هو حد الشعر " .

وتعـــريفه هذا قريب سهل يشترط فيه قصد الشعر ليخرج ما انزن من القرآن ومن كلام اللفظ والوزن ، والمعنى والقافية .

---

[1]- السابق ص ٩٢ ج١.

[2]- السابق ص ١١٦ ج١.

[3]- السابق ص ١١٩ ج١.

وأما عن أغراض الشعر ومقاماته التي يقال فيها فيستطرد في الحديث عنها ([1]) ويجعل أركانها أربعة : المدح ، والهجاء ، والنسيب والرثاء ، ويورد قول بعض العلماء أن مرجع الأغراض إلى المدح والرثاء وأن كل الأغراض تعود إليهما .

ولعل ما يلحظ على ابن رشيق كثرة نقولاته بينما تكون مشاركته في طرح رأيه أقل بكثير وكأنه يكتفي بالعرض .

خذ مثلاً قضية دوافع الشعر وأغراضه نراه يستعرض آراء العلماء كعلي الجرجاني ودعبل وعبد الصمد بن المعذّل ، ولا يورد له كلمة منها

إننا قد نستطيع استنباط رأيه من خلال هذا العرض أو من خلال تنويهه ببعض الآراء ، ولكن كان ينبغي لناقد كبير مثله أن يكثر من عرض رأيه وإبراز شخصيته ، وإظهار كلمته .

ومن القضايا النقدية المهمّة ، والتي عرض لها ابن رشيق في " العمدة " بل وعقد لها فصلاً كاملاً قضية اللفظ والمعنى (١) وله فيها كلام نفيس قال في أول الباب " اللفظ جسم ، وروحه المعنى وارتباطه به ، كارتباط الروح بالجسم ؛ يضعف بضعفه ، يقوى بقوته ، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه ، كما يعرض لبعض الأجسام من العرج والشلل والعور وما أشبه ذلك ، من غير أن تذهب الروح وكذلك إن ضعف المعنى واختل بعضه كان للفظ من ذلك أوفر حظ ، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ وجريه فيه على غير الواجب ، قياساً على ما قدمت من أدواء الجسوم والأرواح ، فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ مواتاً لا فائدة فيه ، وإن كان حسن الطلاوة في السمع ، كما أن الميّت لم ينقص من شخصه شيء في رأي العين إلا أنه لا ينتفع به ولا يفيد فائدة . وكذلك إذا اختل اللفظ جملة وتلاشى لم يصح له معنى ، لأننا لا نجد روحاً في غير الجسم البتة " [2]

---

[1]- السابق ص ١٢٤ج١.

[2]- السابق ص ١٢٤ج١.

وهذا الكلام أصاب من الحقيقة كبدها فقد كان النقاد قبلُ يتحدثون عن أوصاف اللفـظ والشكل من جهة ، وأوصاف المعنى والمضمون من جهة أخرى . أما ابن رشـيق فقد جعل المعنى روحاً واللفظ جسده ؛ ودمج بينهما لأهمية كل منهما حيث يقوم عليهما عماد العمل الفني .

ثم يعرض بعد ذلك آراء العلماء في اللفظ والمعنى ويعيب على من يهتم بجزالة اللفظ ويترك المعنى ويمثل على هذا بقول أبي القاسم بن هانئ :

أصاخت فقالت وقع أجرد سيظم

وشامت فقالت : لمع أبيض مخذم

وما ذعرت إلا لجرس حليّهـــا

ولا رمقت إلا برى في مخـــدّم

قـال : " ولـيس تحت هذا كله إلا الفساد ، وخلاف لمراد ما الذي يفيدنا أن تكون المنسـوب بها ليست حليها فتوهمته بعد الإصاخة والرمق وقع فرس أو لمع سيف غير أنها مغزوة في دارها ، أو جاهلة بما حملته من زينتها ، ولم يخف عنا مراده أنها كانت تترقبه !! فما هذا كله ؟؟

وكانـت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة فإذا أخذ في الحلاوة والرقة ، وعمل بطـبعه وعلـى سـجيّته ؛ أشـبه الناس ، ودخل في جملة الفضلاء ، وإذا تكلف الفخامـة ، وسلك طريق الصنعـة أضر بنفسـه أتعب سامع شعره " (١)

وهذه نظرة نقدية مبصرة يعيب فيها على من قدم جرس اللفظ وفخامته وجلجلته علـى صـحة المعنى وقوته ثم يتوج كلمته بالتنبيه على أهمية الطبع وعدم التكلف فإنها تفسد الشعر .

ثم يعرض لآراء القائلين بالرأي الذاهب إلى سهولة اللفظ فعُني بها ، واغتفـر له فيها الركاكة واللين المفرط : كأبي العتاهية ، وعباس بن الأحنف .

١- السابق ص ١٢٥ ج١.

ومـــنهم من يؤثر اللفظ السهلة المليحة القصد كأصحاب التطرف كالحسين بن الضحاك وأبو نواس .

ثم يعرض للذاهبين إلى تفضيل المعنى على اللفظ : وجعل منهم ابن الرومي، وأبي الطيب !!!

ثم يختـــم حديثه عن هذه القضية بإيراد كلام يستملحه لأبي منصور عبد الملك بـــن إســـماعيل الثعالبي حول اللفظ والمعنى : " البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني ويخيط الألفاظ على قدور المعاني " [١]

وعـــوداً علـــى بـــدء يعود فيعقد باباً في المطبوع والمصنوع [٢] وهو يقصد بالمطـــبوع الـــذي خـــرج طبعاً دون صناعة ولا تكلف ، ويعني بالمصنوع المقوّم المثقّف كحوليات زهير ومن وليه من مدرسة عبير الشعر .

يقـــول " والعرب لا تنظر في أعكاف شعرها بأن تجنس أو تطابق أو تقابل ، فتترك لفظة للفظة ، أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها في فصاحة الكـــلام وجزالـــتـــه ، وبســـط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وإحكام عقد القوافي ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض " [٣]

فهـــو يرى تفضيل المطبوع ، ولا يذم المصنوع ولكنه يجعله عرضة للذم إن تكـــرر وكثر في القصيدة ، فلو أن هناك بيتين أحدهما مطبوع في غاية الجودة ثم وقـــع فـــي معناه بيت مصنوع في نهاية الحسن لم تؤثر فيه الكلفة ولم يظهر عليه التعمل ؛ كان المصنوع أفضلهما إلا أنه إذا توالى ذلك وكثر لم يجز البتة .

وفي قضيـــة نقدية عابرة يعرض رأياً له – بعد عرض لآراء بعض العلماء – في التطويل والاختصار ، وهو رأي نقدي حسن نلمس ذوقه فيه يقول :

١- السابق ص ١٢٨ ج١.

٢- السابق ص ١٢٩ج١.

٣- السابق ص ١٢٩ ج١.

" غير أن المطيل من الشعراء أهيب في النفوس من الموجز وإن أجاد ، على أن للموجز من فضل الاختصار ما ينكره المطيل " [1]

وهـنا نلحظ كذلك أنه إنما يكتفي بعرض لآراء العلماء يناقشها بكلمة سريعة نلحظ منها نفسه القصير في محاجة الآراء ومناقشتها وينتهي ما يكتبه عند ذلك .

فهـو قـد عرض تبعاً لذلك للقصائد والمقطّعات ، ومتى تكون القصيدة كذلك حيث أورد الآراء بين الشعر والرجز ، وعرض خلال ذلك كلمة يسيرة يوضح رأيه فيها قال :

" وكـان ابن الرومي يقصّد فيجيد ، ويطيل فيأتي بكل إحسان ، وربما تجاوز حتى يسرف وخير الأمور أوساطها " [2]

والأخذ بمبدأ التوسط قول فصل في هذه القضية وهو الذي قال به ابن رشيق ؛ حيث إن الإطالة المفرطة تسبّب الخلل والخطل والقصر المفرط – رغم أن بعض العـرب يستحسـنه إظهاراً للطبع وعدم التكلف – هو مظنة الضعف إن لم يظهر براعـته وقدرتـه . ومـن الذرى السامقـة من قضايـاه النقدية الباب الذي عقده وأسـماه " باب في آداب الشاعر " [3] ذكر فيه كثيراً من آداب الشاعر التي ينبغي علـى الشاعر أن يأخذ نفسه بها لينال مبتغاه ، ويتوج عمله بنجاح . ونستطيع أن نجمل الآداب التي ذكرها فيما يلي :

* التثقيف والتزود بكل فن وعلم ، لأن الشعر يتطلب ذلك ويتحمله ، يقول :

١- السابق ص ١٨٨ج١.

٢- السابق ص ١٨٩ج١.

٣- السابق ص ١٩٦ج١.

" والشاعر مأخوذ بكل علم ، مطلوب بكل مكرمة ، لاتساع الشعر واحتماله كل مـا حمّـل : من نحو ، ولغة ، وفقه ، وخـبر ، وحسـاب ، وفريضة ، واحتياج أكثر هذه العلوم إلى شهادته ، وهو مكتفٍ بذاته مستغنٍ عما سواه " [1]

ولا شـك أن هـذه المسألة مما ينادي به النقد الحديث بل ويجعلها من أدوات الشعر التي لا يقوم إلا بها ، وصاحبنا ابن رشيق قد أحسن في إبرازها والتي بعدها غاية الإحسان .

* كثرة الرواية من أشعار العرب ، وأخبارهم ، وأيامهم ، ليستعمل ذلك في شعره ، وليجمع جيد شعره إلى معرفة جيد شعر غيره ، فلا يحمل نفسه إلا على بصيرة .

يقـول : " ولـيأخذ نفسـه بحفظ الشعر والخبر ، ومعرفة النسب ، وأيام العرب ، ليستعمـل بعض ذلك فيما يريده من ذكر الآثار ، وضرب الأمثال ، وليعلق بنفسه بعـض أنفاسـهم ، ويقـوى بقوة طباعهم " [2] وقد تنبه لأهمية هذا الأدب للشاعر بنظرته النقدية الثاقبة التي استطاع بها أن يدرك فضيلة الرواية للشاعر وكثرة قراءة الأشعار وحفظها ، حتى لو كانت من شعر المولدين ، وهذه قضية أخرى سنعرض لها في حينه .

* حسن التأتي والسياسة ، وعلم مقاصد القول لأن هذا الأمر سر صناعة الشعر ، ومغزاه الذي به تفاوت الناس ، وتفاضلوا .

ويقصـد بـه معرفة أغراض الكلام وطرقه وأساليبه ومناسباته " فإن نسب ذل وخضـع ، وإن مـدح أطرى وأسمع ، وإن هجا أخل وأوجع ، وإن فخر خبّ ووضـع ، وإن عـاتب خفض ورفع ، وإن استعطف حن ورجع " [3]

* مطابقـة الأحوال والمقامات ، بحيث يقبل كلام من الشاعر في مقام لا يقبل منه في مقام آخر فكل مقام له مقاله .

١- السابق ص ١٩٦ ج١

٢- السابق ص ١٩٧ج١

٣- السابق ص ١٩٩ج١.

يجـــب أن يـــتفقد الشاعر شعره ، فينفي الرديء ويثبت الجيد ، ولا يسمح بالزكيك في شعره ، " فإن بيتاً جيداً يقاوم ألفي رديء " (١)

وغير هذه الآداب كثير ذكر بعضها في ثنايا كتابه ؛ ولكني أثبت هنا ما ذكره في هذا الباب مما هو أساس لكثير من قضايا النقد الحديث الآن .

ولـــم يدع ابن رشيق الاهتمام بالمطالع وجمال الاستهلال فيها ، فحث الشاعر على أن يحرص على هذا الأمر وحذر من أخطاء بيّنة يقع فيها الشعراء . يقـــول : " وليرغب عن التعقيد في الابتداء ؛ فإنه أدل العيّ ودليل الفهّة " (٢)

وحـــذر مما ينـــال الشـــاعر منـــه بادرة ويؤخذ عليه كقصـــة قول الشاعر : **ما بال عينك منها الماء ينسكب**

ونـــوّع العيوب فذكر منها : مخالفة الحال ، وإضمار مالم يذكر قبل ، ولا جـــرت العـــادة بمثله فيعذر ، ولا كثر استعماله فيشتهر ، وثقل التجانس واستدعاء القافية وغيرها . وكل هذا قد أورد عليه أمثلة مما يستقبح .

ثـــم يذكـــر المطالع الحسنة ويثني على مطالع أبي تمام ويصف بعضها بالفخامة ، والأبهة :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

والمقصـــود من هذا كله أن يتضح اهتمام ابن رشيق بتحسين الشعر وتجويده ذلك الاهتمام البالغ ، لضرورة معرفة الشعراء بهذه الأمور ؛ لأنها البداية والمطلع فإن حسن كان الباقي أكثر حسناً .

ومن مســـائله البلاغية النقدية وهي إلى النقد أقرب حديثه عما أسماه " النظم " ، يذكـــر فيه تأييداً لكلام الجاحظ من وجوب سبك الكلام وإفراغه إفراغاً واحداً ؛ فإنه

١- السابق ص ٢٠٠ ج١.

٢- السابق ص ٢١٩ ج١.

كان كذلك " لذ سماعه وخف محتمله ، وقرب فهمه ، وعذب النطق به ، وحلي في فم سامعه " [1]

وهو يعني بالنظم حسن التأليف وعدم التنافر وعدم الثقل والتباين ، لا النظم الذي ألح عليه عبد القاهر الجرجاني في نظريته الشهيرة .

وهو يستحسن أن يكون البيت بأسره كأنه لفظه واحدة لخفته وسهولته ، واللفظة كأنها حرف واحد .

وتحت هذا الباب يستحسن أشياء كثيرة له فيها نظرات نقدية ، ولكنها إلى البلاغة أقرب منها إلى النقد .

وقد تطرق خلال ذلك إلى ما سار عليه كثير من النقاد من استحسان قيام كل بيت بنفسه لا يحتاج إلى غيره ، مخالفاً رأي ابن طباطبا .

يقول : " ومن الناس من يستحسن الشعر مبنياً بعضه على بعض ، وأنا أستحسن أن يكون كل بيت قائما بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده وما سوى ذلك فهو عندي تقصير " [2]

وهذا الكلام لا شك أنه لا يرضي النقاد والمعاصرين لأنه يخالف أهم ما ينبغي أن يكون عليه الشعر من الوحدة العضوية المبنية على التحام أجزاء الشعر كالرسائل وغيرها

ومن قضاياه النقدية تنويهه بالمخترع [3] الذي سبق إليه الشعراء ، كل فيما سبق إليه وأورد عليه شواهد منها قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي

شواهده لم يقصرها على عصر دون عصر ولا مصر دون مصر بل نسب لكل مجدد ومبدع ومولد ما يستحقه .

١- السابق ص ٢٥٧ ج١.

٢- السابق ص ٢٦١ ج١.

٣- السابق ص ٢٦٢ ج١

وفـــي موضـــع من مواضع الكتاب نراه يعيد على ذم الحشو وفضول الكلام [1] ويرى أن الحشو لكنة ويجعل منه قول زيد الخير :

يقول : أرى زيداً وقد كان معدماً أراه لعمري قد تمول واقتنى

حيث كانت أراه لعمري حشو لا داعي له .

وهـــو يســـير علـــى الأساس الذي يتطلب منه من نبذ الحشو والاستطراد الفارغ والإقحام الذي لا داعي له كما مر معنا في دراسة ابن طباطبا .

وتحـــدث عـــن أشـــعار الكـــتاب [2] وأثنى عليها وذكر محاسنها جملة ، وسنفصلها بتقسيم عله يبلغنا المراد :

١- يـــرى أن التصرف في الشعر من مزاياهم الحسنة من جد أو لهو إلى غزل إلى فخر إلى نسيب إلى هجاء .

٢- رقة الطبع ، وملاحة الصنعة .

٣- حلاوة اللفظ .

٤- لطافة معنى ، وبعد عن تكلف .

قال في تعليقه على بعض الأبيات :

" فلله سلامة هذا الطبع واندفاعه ، وقرب هذا اللفظ واتساعه ، ولله رقة معانيه وإرهافهـــا ، وظهورهـــا مـــع ذلـــك وانكشافها ، ولطف مواقعها من القلوب ، وسرعة تأثيرها في النفوس " [3]

فأنـــت تـــرى اهتمامه بالسهولة وحسن التأتي ، وظرافة المعاني ، وشاعريتها المرهفة .

وحين تحدث عن أغراض الشعر توسع فيها وجعل لكل غرض ما يناسبه من أوصاف اللفظ والمعنى ، وحث الشعراء على التزامها .

---

[1]- السابق ص ٦٩ج٢.

[2] - السابق ص ١٠٦ج٢.

[3]- السابق ص ١١٣ج٢

فمثلاً اشترط للنسيب [1] حلاوة الألفاظ وترسلها ، وقرب المعاني وسهولتها . وأن يختار الشاعر من المعاني ما كان لين الإيثار ظاهر المعنى رطب المكسر ، شفاف الجوهر ، يطرب الجزين ويستخف الرصين .

ويشترط للنسيب المجعول مقدمة القصائد أن يرتبط بما بعده من مدح أو ذم غير منفصل عنه .

وأما المديح [2] فقد فرّق فيه بين مدح الملوك ، والكتاب والقواد ، فاقترح لمدّاح الملوك أن يسلك طريق الإيضاح والإشادة بذكره للممدوح وأن يجعل معانيه جزلة وألفاظه نقية ، غير مبتذلة ولا سوقية .

وقد تحدث عن الفضائل النفسية [3] التي يمدح بها ، والتي ذكرها قدامة بن جعفر وأدخل فيها ما تركب بينها وما اتصل بها وجعل المديح راجعاً إليها ، فيجب على الشاعر مراعاتها حين يمدح الملوك .

أما القواد فيمدحون بما يلائم عملهم من الشجاعة ، والإسراع بالبطش ، والرياسة وغيرها

وأما الفخر [4] فيجعل كل ما حسن في المديح يحسن في الفخر وما قبح فيه يقبح فيه.

وأما الرثاء [5] فإنه جعله كالمدح إلا أن فيه (كان وكنت) وقد سبق رد هذا على قدامة بن جعفر ، ولكن ابن رشيق يلتمس له العذر لأنه قال بعد تشبيهه الرثاء بالمديح : " وسبيل الرثاء أن يكون ظاهرة التوجع ، بيّن الحسرة ، مخلوطاً بالتلهف والأسف والاستعظام " .

فذكر العاطفة أو شيئاً يتعلق بها ، علماً بأنها الفرق الجوهري بين الرثاء والمديح.

---

[1]- السابق ص١١٦ج٢.

[2]- السابق ص ١٢٨ج٢.

[3]) السابق ص ١٣٢ج٢.

[4]- السابق ص ١٤٣ ج٢.

[5]- السابق ص ١٤٧ج٢.

وأمـــا الهجـــاء [1] فيرى أن أقذعه ما كان فيه سلب للفضائل النفسية مثل قول الأخطل :

قوم إذا استنبح الأضياف كلبهم قالوا لأمهم بولي على النار

وله في بعض الأغراض كلام جميل ينصح به الشعراء ، نرى فيها دقة نظرته حيـــث يقرن الاهتمام بمناسبة الشعر لكل غرض بالحرص على التنبه إلى ما يخفى على الشاعر من عيوب يخالف بها عمود الشعر العربي .

ومن القضايا التي بلغت الغاية في الأهمية مسألة القديم والجديد أو شعر القدماء والمحدثين ، حيث نرى إنصافاً وعدلاً بالغاً في قبول الشعر من جميع الأطراف فهو يهب لكل ذي فضل فضله ويعرف له .

يقول في آداب الشاعر :

" ولا يســـتغني المولد عن تصفح أشعار المولّدين ، لما فيها من حلاوة اللفظ ، وقرب المأخذ ، وإشارات الملح ، ووجوه البديع الذي مثله في شعر المتقدمين قليل ، وإن كانوا هم فتحوا بابه ، وفتقوا جلبابه " [2]

وفي موضع آخر يقول :

" والمـــتأخر مـــن الشعراء في الزمان لا يضره تأخره إذا أجاد ، كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا قصر " [3]

كما أثبت للمولّدين إبداعات ومعاني محدثة ، قليل من أثبتها لهم [4]

وقد جعل ابن رشيق باباً لأغاليط الشعراء [5] بناه على مخالفة الشاعر عمود الشعر العربي ، أي ما سارت عليه العرب وما سنته من قول .

---

[1]- السابق ص ١٧٠ ج٢.

[2]- السابق ص ١٩٨ج١

[3]- السابق ص ٢٠٠ ج١.

[4]- السابق ص ٢٣٦ج٢

[5]- السابق ص ٢٤٥ج٢.

وعـــاب كثيراً على الشعراء اتباع الحوشي [1] المتكلف والركيك المستضعف الذي تضعف بنيته وبعد عن الطبع .

فهـــو – شـــأن كل سليم الذوق – ينفر من كل متكلف مجتلب ركيك وحشي ساقط مرذول .

أمـــا السرقات ذلك الباب النقدي الواسع فقد كتب [2] فيه وأطال وأورد أقوال العلماء وجعل لها أتعاباً .

وخصّ السرقة للمعنى البديع ، أما المعاني المشتركة فلا سرقة فيها .

ويـــرى ابن رشيق أن الشاعر ينبغي له أن يستفيد من الذين سبقوه ، ولا يتكل على السرقة منهم يقول :

" واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز ، وتركه كل معنى سبق إليه جهل ، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات " [3]

ورأيه هذا موافق لآراء كثير من النقاد حيث يرون الاستفادة دون الاجتلاب .

هـــذه بعض قضايا ابن رشيق النقدية ولعل أكبر ما تميز به هو خلطه وجمعه فـــي ذكـــر الأوصـــاف بين اللفظ والمعنى حيث جعل اللفظ جسداً والمعنى روحاً ، يمـــتزج كـــل مـــنهما بالآخـــر ، كما أنه كان يؤثر السهولة واللين وقرب المأخذ ، وسهولة المخرج في اللفظ ، مع قرب المعنى وعدم مخالفته ولطافته .

ويلـــح فـــي مواضع كثيرة على الموافقة لمقتضى الحال وما يمليه المقام ، من تفخـــيم في العبارة وقوة في الأسلوب ، أو سهولة وقرب مأخذ وسلامة معنى .

وعلى هذا فابن رشيق جمع بين النظرة النقدية مع الروح الشعرية فخلص من هذا لأحكام جميلة حث عليها أقرانه الشعراء .

---

[1] – السابق ص ٢٦٥ج٢.

[2] – السابق ص ٢٨٠ ج٢.

[3] – السابق ص ٢٨١ج٢

وفـــي مواضع كثيرة من كتابه نراه ينقد أبياتاً لشعراء عدة يضفي عليها بعض الأحكـــام ولكن ومما يحمد له ويظهر فضله فيه عدم تفضيله المتقدمين لتقدمهم و لا ذمـــه المتأخرين لتأخرهم ، وإنما كان تحكم على الشعر بما يراه من قيمته الفنية ، وصحة عبارته ، وسلامة كلماته .

وفـــي حديـــثه عـــن أشـــعار الكتاب نرى ابن رشيق مغرباً بالأبيات الرقيقة المتراقصـــة ، الغريبة المعنى ، الجميلة الوصف للحالة ، المطابقة لمقتضى الحال .

وهـــذه تشبه النظرات النقدية الحديثة في الحرص على مثل هذه القضايا .

كل هذا وذاك مثبوت في كتابه بين ازدحام آراء العلماء ، حيث لا نرى كلمة له إلا يجاورها عشرات الكلمات لمختلف العلماء .

فمـــا يعـــاب على ابن رشيق عدم الإطالة في إبداء الرأي ، وقصر النفس في مناقشة العلماء .

ولو أنه ناقش كل قول أورده لحصلنا على ثروة نقدية هائلة .

رابعاً : الموازنـــــة

الموازنـــة هنا صعبة ، وذلك لأننا أمام علماء كل منهم يمثل طريقة في الكتابة الـــنقدية . وتخـــتلف القضايا النقدية بينهم اختلافاً شديداً ولم يؤصل أحدهم لقضايا ومسائل تعيش وحدها دون البلاغة .

وقـــبل أن نلج يجب أن نعلم أن كلا من هؤلاء له طريقة خاصة ويمثل مذهباً معيـــناً ، فبينما نرى ابن طباطبا جاحظي الأسلوب يميل إلى الاستطراد وينهج نهج الجاحظ في كثير من مسائله النقدية ، نرى قدامة يوناني النجعة ، أرسطيّ التقسيم ، يمـــيل إلى المقدمات والنتائج ، ونرى كذلك ابن رشيق ناقلاً متوسعاً ذا ثقافة تؤهله لأن يكـــثر النقول والأقوال ، ولا يميل إلى إيراد الرأي ، ومقارعة الحجة بالحجة ، بل **يكتفي بما يورد . وسنبدأ بذكر فروق أساسية في كيفية تناول المسائل النقدية فيما بينهم : فابن طباطبا يتميز بما يلي :**

- تأثره بالجاحظ فهو يردد كثيراً من ألفاظه ويلح على كثير من مسائله مثل التلاؤم والنظم وغير ذلك .
- تأثره بابن قتيبة والسابقين عموماً واهتمامه بما يكتب غيره .
- اهـــتمامه بعمود الشعر العربي ، والعودة بكل قضية إلى ما كان عليه العرب في السابق .
- إنصافه لكل من أجاد .
- ذوقه المرهف من خلال نقده لبعض الأبيات كبيت زهير

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

وقدامة يتميز بما يلي :

- تأثره بأرسطو وبالفلسفة اليونانية وذلك في تقسيمه بالمنطق وجدلياته .
- قـــوة شخصيته بشكل مبهر فهو يتحدث ويقسّم ويفرّع دون أن يلقي لمن هو على أهبة المعارضة بالاً.
- انتقاصه لمن سبقه كابن المعتز وثعلب .
- الاعتساف في بعض الأحكام ، لموافقة التقسيمات المنطقية ، مثل رده للمدائح التي تكون لغير الفضائل النفسية .

وأما ابن رشيق فيتميز بما يلي :

- التوسع والاستطراد ووفرة المادة العلمية .
- النقل لكثير من أقوال العلماء والأدباء .
- احترامه لكل من سبقه .
- ضعف الحجة ، والنفس القصير في المجادلة .
- الذوق الجميل في الاختيارات .

هذه أمور مجملة وربما تتضح من خلال عرضنا لبعض القضايا النقدية عنـــد الجميع وطرحنا آراءهم وأفكارهم ورؤيتهم لها في الصفحات القادمة .

ولعل مما يجمل كذلك أن نورد أخطاء عامة لكل من هؤلاء الثلاثة في بعض نقدياتهم لنكون على ذكر بها .

فمما يعاب على ابن طباطبا :

- الوجـــازة والاختصار عامة فهو قصير بالنسبة لصاحبيه .
- عدم توسعه في ذكره لأدوات الشعر والتي لو أطال فيها الكلام لكان بانياً لفن النقد فذاً .
- الإطالة في ذكر النماذج والمختارات إذ قد يصل عدد الأبيات في شاهد أورده إلى ســـبعين بيتاً كما في عينية الأعشى التي بلغت (٧٦) بيتاً متوالية . وهذا قد يعده البعض حسناً ، ولكنه قد يذهب الهدف الأساسي من طرحه لبيان الوجهة النقدية .

ومما يعاب على قدامة :

- الإغراق في التشبث بالفلسفـــة اليونانيـــــة وربط
- المصطلحات العربية والأفكار بها .
- التقســـيم القـــائم على طريقة المناطقة وأصحاب الجدل ، مما جعل الجمود يسري إلى بعض كلامه .
- إهماله لكثير من القضايا النقدية الساخنة في عصره .
- مخالفته لما عليه مسيرة الشعر العربي في كثير من القضايا .

ومما يعاب على ابن رشيق :

- تطـــرقه لموضـــوعات لا تمس صناعة الشعر ونقده كحديثه عن الممالك والديار والخلفاء .
- كثرة نقولاته دون التمحيص وذكر الرأي المختار .
- قصر نفسه في مواجهة الآراء والحجج .
- اتـــباعه لقدامة في المدح للفضائل النفسية ، رغم أنه يجيز المدح بالبهاء والبشر وغيره من الأوصاف الحسية .

هــذه نظرات عامة حول هؤلاء الثلاثة وكتاباتهم النقدية فلننطلق الآن للحديث عن بعض القضايا النقدية .

أولاً : تعريف الشعر :

ابن طباطبا :

يطرح تعريفاً يفرق فيه بين الشعر والنثر . يقول :

" كلام منظوم بان عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خص به من النظم الذي إن عدل به عن جهته مجته الأسماع ، وفسد على الذوق " [1]

ونلحظ من هذا التعريف عدة أشياء :

١- اهتمامه بالنظم وهو عنده اتساقه الشعري وجودة ترابطه .

٢- ذكره للذوق الذي هو في الحقيقة مدار قبول الأعمال الأدبية وردها .

ولــكــن هذا التعريف أهمل عناصر الشعر وأركانه وما ينبغي له من النية ، والدلالة على معانٍ مفيدة .

قدامة بن جعفر :

يطرح قدامة تعريفاً بليغاً قصيراً للشعر ،فيقول: " قول موزون مقفى يدل على معنى " [2]

ونلحظ من هذا التعريف عدة أمور :

١- اختصاره مع اشتماله على كثير من قضايا الشعر .

٢- ذكره لأركان الشعر : اللفظ ، والمعنى ، والوزن ، والقافية .

ولكــن هــذا الــتعريف أهمل اشتراط النية والقصد عليه . ولكنه ذكر أركان الشــعر وأقســامه التــي يقــوم عليها ، مع ربطه بين اللفظ أو الشكل والمعنى أو المضمون .

---

[1]- عيار الشعر لابن طباطبا ص ٥.

[2]- نقد الشعر – قدامة بن جعفر ط٣ص١٧

ابن رشيق :

وضـــع ابن رشيق حداً للشعر ، ولكنه لم يجعله في عبارة مركزة تصلح لأن تكون تعريفاً متكاملاً فقال :

" الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهي :

اللفظ ، والوزن ، والمعنى ، والقافية ، فهذا هو حد الشعر " [1]

ونلحظ من هذا التعريف :

١- عـــدم تركيزه حتى يصلح أن يكون تعريفاً قائماً ، بل جعله ابن رشيق عائماً يذكر الصفات .

٢- اشتماله على أركان الشعر الأربعة .

٣- ذكره للنية والقصد التي يشترط وجودها في كل شعر ، لأنه قد يتفق من كـــلام الله تعـــالى ، ومـــن كلام نبيه محمد صلى الله عليه وسلم شيء مـــوزون مقفـــى يدل على معنى ، ولكنه لا ينبغي بأية حال أن يكون شعراً .

ولكنه لم يذكر جودة التركيب ، وحسن النظم الذي إن أخل به مجّه الذوق.

والحـــق فـــيما أرى أن تعريف قدامة أكثرها انضباطاً واختصاراً لو أنه ذكر النية وقصد الشعر .

ثانياً : اللفظ والمعنى

اللفـــظ والمعـــنى من أمهات المسائل النقدية وفي رحاها تساقطت عمائم العلماء ، وارتفع عثير الطراد ، ففريق منهم ذهب إلى تفضيل المعنى وأنه سر العـــبقرية وجـــودة الأدب ، وفريق ذهب إلى تفضيل اللفظ وجعـــل المعـــاني مطـــروحـــة فـــي الجـــواد يعرفهـــا الجميـــع ، وفريـــق رأى الجمع بينهما وأنهما لا يفترقان فأحدهما جسد والآخر روح .

---

[1]- العمدة –ج١ – ص١١٩.

وموقف علمائنا الثلاثة من هذه القضية مرضٍ إلى حد بعيد .

فابن طباطبا :

اهتم اهتماماً بالغاً بتوضيح رأيه في هذه المسألة في عدة مواضع من كتابه .

وقد كان يرى رأي الجاحظ الحقيقي وهو وجوب الاهتمام بالمعنى واللفظ على السواء ، بل إنه تعدى ذلك إلى جعله المعنى روحاً ، واللفظ جسداً ، يقول :

" إذا قالت الحكماء أن للكلام جسداً وروحاً فجسده النطق ، وروحه معناه " [1]

وفي عدة مواضع يوصي بتحسين الألفاظ ، ومراعاة المعاني وعمقها .

وأما قدامة :

فقـد تحدث عن نعوت الجودة في اللفظ ، ونعوت الجودة في المعاني كلاً على حدة ، ولكنه جعل ائتلاف اللفظ مع المعنى دليل جودة .

وقد أكثر في نعوت الجودة في المعاني .. فهل كان يميل إلى جانب المعنى ؟ قـد يكون ذلك صحيحاً ، خصوصاً إذا علمنا أنه ألحّ على الاهتمام بتجويد المعاني وصحتها ، وطرافتها .

وأما ابن رشيق :

فـيعرض لهذه المسألة ويعقد لها فصلاً كاملاً ، تحدث فيه عن آراء العلماء ، ويـورد حجـج كـل فريق ، ثم يأتي بالحكم الفاصل وهو وجوب الاهتمام بتجويد العنصرين فكل منهما لا غنى به عن صاحبه .

" اللفظ جسم ، وروحه المعنى ، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم ، يضعف بضعفه ويقوى بقوته " [2]

ويورد بعد ذلك أمثلة لمن يرى تقديم اللفظ ، وأخرى لمن يرى تقديم المعنى ، وفي نهاية حديثه الرائع تحدث عما يجره الاهتمام باللفظ دون الحرص على تجويد المعنى من التكلف الظاهر .

---

[1]- عيار الشعر ابن طبا طبا ص٢٠٣.

[2]- العمدة –ص١٢٤ ج١.

ثالثا : السرقات : وهي قضية نقدية كبيرة تعددت فيها كتابات النقاد الذين كانوا ينزعون إلى تعديد مسميات ، فمنهم من يسميها الأخذ ، ومنهم من يسميها الإغارة ، وغير ذلك .

ولا شك أن قضية مثل هذه لا ينبغي أن تهمل ولا يتحدث فيها ، فلننظر نصيبها من الحديث عند كل من هؤلاء :

فابن طباطبا : تحدث عنها مجملاً لها ، ناهياً الشاعر أن يغير على معاني غيره فيلبسها وزناً جديداً . **يقول :**

" لا يغير – أي الشاعر – على معاني الشعراء فيودعها شعره ، ويخرجها في أوزان مخالفة لأوزان الأشعار التي يتناول منها ما يتناول " (١)

ثم تعددت المواضع بعد ذلك فتحدث عن السرقات بشيء من الليونة متيحاً للشاعر أن يأخذ معنى بعد أن يلبسه لفظاً جديداً ، فقد يبلغ بها حينئذ الغاية ويذيع اكثر من الأصل.

وتحدث ابن طباطبا أيضاً عن سرقة من نوع آخر قد لا تعنينا وهي السرقة من شعر الشاعر يقوم بها الشاعر نفسه ، بعد أن يأخذ المعنى ويديره في نفسه .

وأما قدامة بن جعفر :

فلم يتحدث عن السرقات بقليل ولا بكثير وهذا عيب يؤخذ عليه ، لأنها مسألة ساخنة تحتاج إلى مزيد بحث وكتابة مستفيضة .

وأما ابن رشيق :

فقد عقد لها فصلاً مستقلاً وجعلها خاصة بالمعنى الفريد ، أما المعاني المشتركة فلا سرقة فيها . كما أنه يرى أهمية الإفادة من معاني السابقين دون السطو على ممتلكاتهم،ويقول في ذلك: " واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز ، وتركه كل معنى سبق إليه جهل ، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات " (٢)

١- عيار الشعر ابن طباطبا ص١٤.

٢- العمدة – ابن رشيق ج٢ –ص٢٨١.

ورأي ابــن رشــيق ، وحديثه عن السرقة أشمل وأوسع وهو المفضّل حيث نوّع ألقابها ، وذكر أمثلة كثيرة عليها .

رابعاً : القديم والجديد :

أو القدماء والمولّدين ، ما مقدار التفاضل ؟ وهــل تقبل أشعار الجميع ؟ وهل يحــق للمتأخريــن أن يــبدعوا ؟؟ كل هذه أسئلة تنتظر الإجابة عليها من علمائنا الثلاثة.

أمــا ابــن طباطبا : فله كلام جميل ومذهب مستحسن حيث لم يقصر القبول على شعر القدماء فقط ، بل استحسن كل شعر جميل في أي عصر .

يقول : " وستعثر في أشعار المولدين بعجــائب استفــادوهــا ممن تقدمهم ولطفوا في تناول أصولها منهم ، ولبسوها على من بعدهم " [1]

وأمــا قدامــة : فالذي يظهر من استقراء عام لكتابه أنه يفضل الرأي القائل بقبول الجيد من الطرفين ، رغم ميله إلى المجددين .

وأمــا ابن رشيق : فهو يثبت للمولدين إبداعاتهم ، ويثني على شعر الأقدمين يقول في أحد المواضع : " ولا يستغني المولد عن تصفح أشعار المولدين ، لما فيها من حلاوة اللفظ ، وقرب المأخذ ، وإشارات الملح ، ووجوه البديع ، الذي مثله في شعر المتقدمين قليل ، وإن كانوا هم فتحوا بابه وفتقوا جلبابه " [2]

ويقول في موضع آخر : " والمتأخر من الشعراء في الزمان لا يضره تأخره إذا أجاد ، كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا قصّر " [3]

خامساً : وحدة العمل الأدبي :

الوحدة العضوية موضوع جديد من موضوعات النقد ولكن هناك من علمائنا الأوائل من تطرق له فما رأي نقادنا الثلاثة .

---

[1]- عيار الشعر – ابن طباطبا – ص١٢.

٢- العمدة – ج١ –ص١٩٨.

٣- العمدة – ج ١ – صـــ ٢٠٠ .

أما ابن طباطبا :

فقـد أحسـن غايـة الإحسـان وحاز قصب السبق فقد فتق الحديث عن هذا الموضـوع لأول مرة ، وذكر هذا في كلام طويل [1] ملخصه أنه ينبغي أن يكون الشعر بعضه يسلم إلى بعض محكم البناء كالرسائل والنثريات .

وهذه منقبة تحمد له رغم كلام بعض المعاصرين مما سبق بيانه خلال البحث .

وأما قدامة : فلم يتعرض لهذا الموضوع .

وأما ابن رشيق : فلم يستحسن هذا الرأي ورد رأي ابن طباطبا مباشرة وذهب إلى أنه ينبغي أن يكون كل بيت مستقلاً بمعناه .

يقول : " وأنا استحسن أن يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده وما سوى ذلك فهو عندي تقصير " [2]

سادسـاً : : الطـبع والصـنعة : ذهب علماؤنا الثلاثة إلى تفضيل الطبع وإنكار التكلف ، والاهتمام بتجويد الشعر وحسن صناعته .

وهناك قضايا نقدية صغيرة تحدث عنها بعضهم ، وتركها بعضهم ، وهناك لمحـات نقدية من خلال تمحيص الشواهد ، ولعل فيما ذكرنـا من قضايا نقدية أساسية كفاية ، وهي مساعدة ليس إلا .

والحق أني أعجبت بهم جميعاً غير أني أرى ابن طباطبا أقرب إلى جماليات النقد والإبداع .

---

[1]- عيار الشعر ص٢١٣.

[2]- العمدة ج١ص٢٦١.

المراجع

١- **نقد الشعر** : لأبي الفرج قدامة بن جعفر . تحقيق كمال مصطفى . الطبعة الثالثة .

٢- **عيار الشعر** : لأبي الحسن ابن طباطبا العلوي . تحقيق الدكتور عبد العزيز المانع – دار العلوم ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .

٣- **العمدة في محاسن الشعر:** وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق . تحقيق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجبل – ١٤٠١ هـ ١٩٨١ م الطبعة الخامسة.

٤- **البلاغة تطور وتاريخ** : د . شوقي ضيف – دار المعارف – الطبعة السابعة

٥- **النقد الأدبي الحديث** : د . غنيمي هلال – دار الثقافة – دار العودة

٦- **قضايا النقد الأدبي بين القديم والجديد** : د . محمد زكي العشماوي – دار النهضة ١٤٠٤ هـ – ١٩٨٤م

٧- **النقد المنهجي عند العرب** : د . محمد مندور – دار النهضة مصر للطبع والنشر .

٨- **المتخيّر من كتب النقد العربي** : د . محمود الربداوي. مؤسسة الرسالة – بيروت . سنة الطبع ١٤٠١هـ – ١٩٨١ م – الطبعة الأولى

٩- **تاريخ النقد الأدبي عند العرب** : د . عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م – الطبعة الرابعة .

١٠- **في النقد الأدبي:** د . عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية١٩٧٢ م – ١٣٩١ هـ – الطبعة الثانية

١١- **الأعلام** : خير الدين الزركلي

١٢- **معجم الأدباء:** ياقوت الحموي – دار الفكر . الطبعة الثالثة – ١٤٠٣ هـ